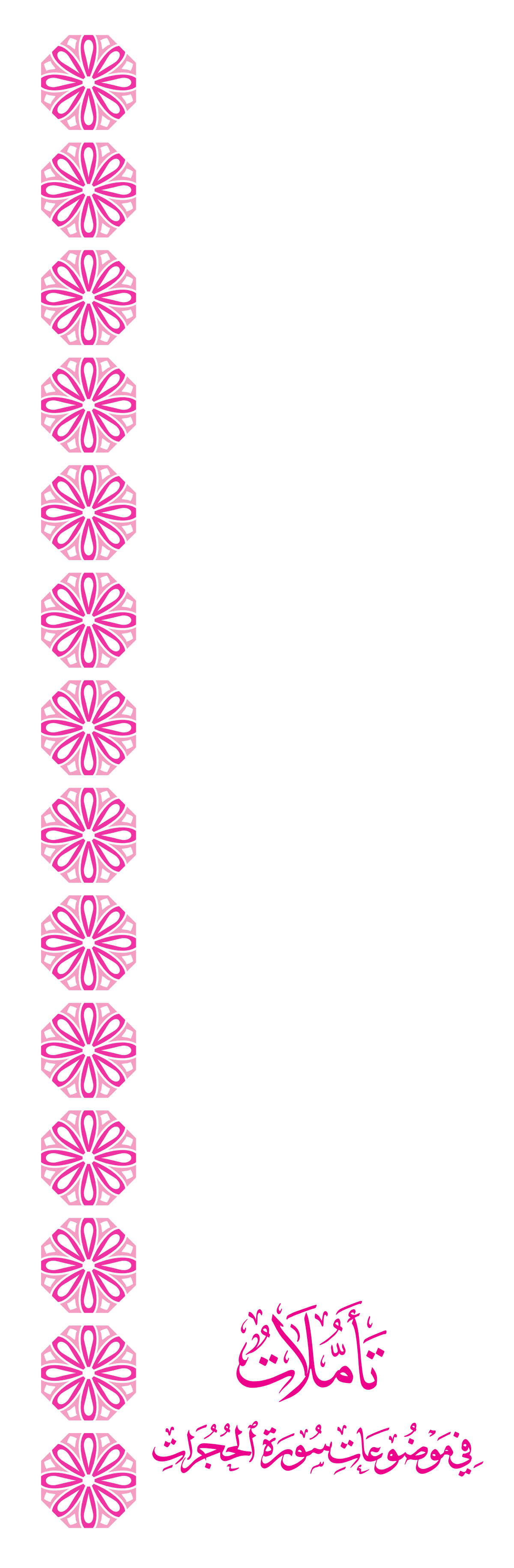


تأملات

في موضوعات سورة الحجرات

ح محمد عبد العزيز العواجي، ١٤٤١ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العواجي، محمد عبد العزيز محمد
تأملات في موضوعات سورة الحجرات. / محمد عبد العزيز محمد العواجي. - المدينة المنورة، ١٤٤١ هـ
٢٢٤ ص، ١٧× ٢٤ سم
ردمك: ٥-٤٨٤٣-٠٣-٦٠٣-٩٧٨
١- القرآن - سورة الحجرات - تفسير ٢- القرآن - التفسير الحديث
أ. العنوان
ديوي ٦, ٢٢٧ ١٢٤٣٩/ ١٤٤١

رقم الإيداع: ١٢٤٣٩/ ١٤٤١
ردمك: ٥-٤٨٤٣-٠٣-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى
١٤٤٢ هـ - ٢٠٢٠ م



سلسلة

التفسير الموضوعي الميسر

٥

تأملات في موضوعات سورة الحجرات

تأليف

أ. د. محمد بن عبد العزيز العواجي

الأستاذ بقسم التفسير وعلوم القرآن بالجامعة الإسلامية

بالمدينة النبوية




بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليمًا كثيرًا.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ۝٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد:

فإن المتأمل في سورة الحجرات يجد أنها مدرسة تربوية متكاملة، وقد تربى في ظلالها أصحاب رسول الله ﷺ، ومع قصرها فإنها تتضمن حقائق العقيدة والشريعة والأخلاق، وهي تفتح للقلب وللعقل آفاقًا عالية وآمادًا بعيدة، وتثير في النفس والذهن خواطر عميقة ومعاني كبيرة، وتشتمل على قواعد التربية والتهذيب، ومبادئ التشريع والتوجيه.

ولذلك لا نعجب أن نرى أخلاق الجيل الأول المستمدة من القرآن وسيرة من

«كان خلقه القرآن» ﷺ[١] قد فتحت الدنيا بأسرها وهي تقول بأعمالها وليس بألسنتها: هذا هو الدين، هذا هو الإسلام، دين الأخلاق الحقيقية الواقعية، البعيدة عن المصالح الدنيوية القاصرة، فأخلاق الإسلام يتحقق بها مصالح العباد جميعًا وما يصلح حالهم في دنياهم وأخراهم.

وأمتنا اليوم أحوج ما تكون إلى مثل هذه السور لتعلم ما فيها من حضارة وإشراق، وتجعل ذلك العلم واقعًا عمليًا تجدد به جهود الرعيل الأول من هذه الأمة المباركة، لأنه "لن تَصلح هذه الأمة إلا بما صلح به أولها"[٢].

فجاء هذا البحث في هذه السورة؛ محاولة لإبراز تلك الأخلاق العالية.

ولعلها تكون نموذجًا يحتذيه المسلم في سائر سور القرآن الكريم.

منهجية البحث:

وقد اتبعت في هذا البحث المنهجية الآتية:

- الرجوع إلى كتب التفسير.
- إيراد الروايات الصحيحة في تفسير الآيات وأسباب النزول.
- بيان المعنى الإجمالي للآية مع استنباط العبر والعظات منها.
- التزمت الاستشهاد في السنة بالأحاديث الصحيحة فقط، ولم أستشهد بحديث اتفق على ضعفه.
- اعتمدت على تصحيح وتضعيف الشيخ الألباني -عليه رحمة الله- وعلماء الحديث، وما لم أصل إلى الحكم عليه -وهذا قليل جدًا- اكتفيت بذكر المصدر فقط.

---

(١) مسند أحمد ٤١/ ١٤٨ (٢٤٦١٠)، قال شعيب الأرناؤوط: حديث صحيح.

(٢) عزاها الشاطبي للإمام مالك في كتاب الاعتصام ١/ ١١٥.

◈ التركيـز في المعنـى على الفوائـد العملية، والحرص -قدر المسـتطاع- على عدم إيراد أي معلومة لا ينبني عليها فائدة عملية.

◈ ربط جوانب السورة ببعضها؛ لكي تخرج كموضوع واحد.

◈ محاولة ربط الواقع الدعوي الأول بالواقع الدعوي الحاضر.

◈ قدمت بمقدمة عن الوحدة الموضوعية للسورة، وحاولت أن أبين فيها ملامح السورة الرئيسة وربطها بحيث تكون موضوعًا واحدًا.

خطة البحث:

⌑ **المقدمة: قدمت هذا البحث بمقدمة ذكرت فيها منهجية البحث مع خطة البحث:**

⌑ **تمهيد: مقدمات حول السورة:**

المطلب الأول: الوحدة الموضوعية للسورة.

المطلب الثاني: إحصاءات وبيان دلالاتها.

⌑ **الفصل الأول: الأدب مع الله، والأدب مع رسول الله، والأدب مع العلماء:**

المبحث الأول: الأدب مع الله تعالى.

المبحث الثاني: الأدب مع رسول الله ﷺ.

المبحث الثالث: الأدب مع العلماء.

⌑ **الفصل الثاني: نعمة الهداية والتوفيق:**

المبحث الأول: نعمة الإيمان بالله وبالنبي ﷺ.

المبحث الثاني: المنة لله وحده في التوفيق للهداية.

المبحث الثاني: آفات الأخبار.

المبحث الثالث: أصناف الناس في تلقي الأخبار، ومن تُقبل روايته منهم.

المبحث الرابع: ما ينبغي على المسلم عند سماع الإشاعات والأخبار.

المبحث الخامس: الأخبار التي يجب التثبت منها وعدم نشرها.

¤ **الفصل الخامس: الإخوة الإسلامية:**

المبحث الأول: مفهوم الأخوة في الله.

المبحث الثاني: أهمية الأخوة وفضلها.

المبحث الثالث: الإصلاح بين المسلمين من أهم حقوق الأخوة.

المبحث الرابع: خوارم الأخوة:

المطلب الأول: السخرية والهمز واللمز والتنابز بالألقاب.

المطلب الثاني: سوء الظن والتجسس.

المطلب الثالث: التجسس.

المطلب الرابع: الغيبة والبهتان.

المطلب الخامس: إثارة النعرات القومية والعصبيات القبلية والدعوات الجاهلية.

المطلب السادس: خوارم أخرى للأخوة.

المبحث الخامس: حقوق الأخوة الإسلامية.

المبحث السادس: آداب الأخوة.

¤ **الفصل السادس: الإسلام والإيمان:**

المبحث الأول: تعريف الإسلام والإيمان وأركانهما.

أسأل الله سبحانه أن يجعل هذا العمل في ميزان أعمالنا يوم القيامة، وأن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل، وأن يلهمنا العلم النافع والعمل الصالح، كما أسأله سبحانه أن يتجاوز عن أخطائنا، وأن ينفع بهذا العمل، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

أ.د. محمد بن عبد العزيز بن محمد العواجي

تم تبييضه في ١٥/٩/١٤٢٧هـ

طيبة الطيبة

تمهيد: مقدمات حول السورة

المطلب الأول

الوحدة الموضوعية للسورة

سورة الحجرات سورة مدنية[١]، تضمنت وحدة موضوعية[٢] تعالج مسائل مهمة للمجتمعات الإسلامية اليوم، فقد اهتم بها الرسول ﷺ في العصر المدني أول ما وصل إلى المدينة فتأسس المجتمع المسلم.

"مقصودها الإرشاد إلى مكارم الأخلاق بتوقير النبي ﷺ بالأدب معه في نفسه وفي أمته، وحفظ ذلك من إجلاله بالظاهر ليكون دليلًا على الباطن فيسمى إيمانًا"[٣].

بينت السورة معالم عامة لمجتمع رفيعٍ كريمٍ نظيفٍ، متضمنةً القواعدَ والأصولَ والمبادئَ والمناهج التي يقوم عليها هذا المجتمع، والتي تكفل له قيامه أولًا، واستمراريته ثانيًا، وصيانته ثالثًا، إذ يرتكز على الإيمان بالله بكل معنى الإيمان، بعيدًا عن التصرفات الخاطئة عن معنى ذلك الإيمان.

وقد جاءت الآيات بعدة نداءات للمؤمنين تحذرهم من صفاتٍ تخلخل كيان مجتمعهم الإسلامي، وتنافي كمال إيمانهم بالله تعالى، لذلك كان النداء بلفظ الإيمان؛ ليدل على أن هذه الصفات تنافي كمال الإيمان.

---

(١) فقد ورد ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما، الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ١٤، دلائل النبوة للبيهقي ٧/ ١٤٤، الدر المنثور ١٣/ ٥٢٧.

(٢) هذه المقدمة مختصرة من مقدمة السورة في التحرير والتنوير ٢٦/ ٢١٣-٢١٥، وفي إيجاز البيان في سور القرآن ص٢٠٤.

(٣) نظم الدرر ٧/ ٢٢٠.

هذا المجتمع المسلم مجتمع يتصف بجملة صفات حوتها آيات هذه السورة:

فهو مجتمع يتلقى عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويتأدب مع الله ومع رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴾.

وهو مجتمع له منهجه في الأدب مع الرسول ﷺ ومع كل الذين يبلغون عن رسول الله من علماء ودعاة وقادة، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾.

مجتمع له منهجه في التثبت من الأقوال والأفعال ومن مصدرها قبل الحكم فيها، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴾.

مجتمع له نُظمه وإجراءاته في مواجهة ما يقع من خلافات وفتن بين المسلمين، تثلم كيانهم لو تركت بلا علاج، قال تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا ﴾ الآيات.

مجتمع له آدابه في التعامل مع بعضه البعض، نظيف المشاعر مكفول الحرمات، لا يأخذ أحدًا بظن، ولا تتبع فيه العورات؛ قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ ﴾ الآيات.

مجتمع وضع الله له ميزانًا يقوم به الجميع، حيث إن الناس كلهم خلقوا من ذكر وأنثى ولكن جعل الله هذا الميزان -وهو التقوى- ليكون هو نقطة التميز بين الناس، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾.

مجتمع رسم الله له معالم إيمانه التي تكفل له بقاءه واستمراره، وهذا الإيمان لا يأتي بالجاه والمنصب والمال الكثير، وإنما هو من عند الله ﷻ وحده. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

فهذه السورة فيها معالجة كثير من الأخطاء التي قد يقع فيها أفراد المجتمع المسلم، وشملت فقه التعامل وأدب التعامل مع الله ﷻ ومع رسول الله ﷺ ومع ما يصدر من تشريعات الله ورسوله، وأدب التعامل مع أفراد المجتمع، عَالِمهم ومُتَعلمهم، ومؤمنهم وفاسقهم، الحاضر منهم والغائب.

واهتمت بجانب مهم جدًا لتحقيق ذلك كله، وهو تقوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومكان وجود تلك التقوى، وهو القلب، فتكرر لفظ التقوى فيها، قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾، وأخيرًا قوله ﷻ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ وهذا يدل على بروز الأمر بالتقوى في هذه السورة.

وبرز أمر القلب وإصلاحه في السورة؛ سواء بلفظ القلب أو بالإشارة إليه، قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ والندم لا يكون إلا بالقلب أوّلا، ثم بعد ذلك يظهر على الجوارح، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ والظن لا يكون إلا في القلب.

فهذه الأمور التي ذكرناها من المواضيع المهمة التي تعالجها هذه السورة.



المطلب الثاني
إحصاءات وبيان دلالاتها

لا شكّ أن تكرار بعض الكلمات اللغويّة ومشتقّاتها، والألفاظ على تنوّع أحوالها وتركيبها، في سورة من سور القرآن الكريم له دلالته الخاصّة، التي تعيننا كثيرًا في فهم السورة، والكشف عن الوحدة الموضوعيّة فيها؛ إذ إن كلام الله تعالى المعجز -بسوره وآياته وحروفه- ليس ككلام أيّ من البشر؛ وإنما كلّ كلمة في كتاب الله تعالى بحساب، وكلّ حرف بمقدار، من عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال.

وإن المتأمّل في سورة الحجرات لا بدّ أن يلفت نظره ما تكرّر فيها من المصطلحات والكلمات والجمل والتعبيرات، التي لها أثرها المهمّ البارز في إدراك مقاصد السورة وتدبّرها، وفهم معانيها والربط بين مقاطعها.

ونذكر نموذجًا ممّا تكرّر في السورة لتكون عونًا لنا في اكتشاف الوحدة الموضوعيّة، التي تنتظم السورة.

١- تكرّر قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ في هذه السورة خمس مرات؛ وذلك لربط الحقائق التشريعيّة والأخلاقيّة التي تتحدّث عنها بالإيمان بالله تعالى وحقائقه، ولدلالات أخرى سنأتي إلى الحديث عنها في موطنه المناسب بإذن الله.

٢- وتكرّر الحديث الصريح عن التقوى ومشتقّاتها خمس مرّات: ثلاث مرات في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، ومرّة بقوله: ﴿ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ وأخرى بقوله: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ ولذلك دلالاته العديدة، التي من أهمّها: أن التقوى هي روح

الإيمان، وأن دخول الإيمان في القلوب هو بداية التحقّق بها، وأن الكرامة عند الله تعالى لا تُنال إلا بالتقوى، إلى دلالات أخرى سنعرض لها في مواطنها بإذن الله تعالى.

٣- ذكر ما تكرّر من أسماء الله تعالى وصفاته، وبيان ما فيه من دلالات:

أ- تكرّر اسم **الله** -جلّ وعلا- خمسًا وعشرين مرّة.

ب- تكرّر اسم الله **العليم** أربع مرات.

ج- تكرّر اسم الله **الرحيم** ثلاث مرات.

د- تكرّر اسم الله **الغفور** مرّتين.

هـ- وذكر كل واحد من هذه الأسماء مرّة: **السميع، الحكيم، التوّاب، الخبير، البصير**.

وأسماء الله تعالى الحسنى جاءت بصيغة التنكير، ولا شكّ أن لذلك إيحاؤه ودلالته، فهي تفيد التعميم، وتشير إلى قرب هذه الصفات من العباد، وتلوّح لهم بحسن التعامل معها، وبخاصّة فيما تتحدّث عنه الآيات من أحكام وتشريعات، وأخلاق وتوجيهات، عدا عما في ذلك من دلالات أخر، والله تعالى أعلم.

٤- تكرّر ذكر الرسول ﷺ في هذه السورة ستّ مرات، واحدة منها بلفظ النبيّ ﷺ، وسائرها بلفظ الرسول ﷺ، مما يدلّ على علوّ قدره، وتأكيد حقّه ﷺ.




الفصل الأول

الأدب مع الله والأدب مع رسول الله ﷺ

والأدب مع العلماء

وفيه تمهيد وثلاثة مباحث:

تمهيد: هدايات الآيات حول الأدب مع اللّه والأدب مع رسول اللّه ﷺ.

المبحث الأول: الأدب مع اللّه تعالى.

المبحث الثاني: الأدب مع رسول اللّه ﷺ.

المبحث الثالث: الأدب مع العلماء.




تمهيد
هدايات الآيات حول الأدب مع الله والأدب مع رسول الله ﷺ

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾.

"أي لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة"، "ولا تعجلوا بقضاء أمر في حروبكم أو دينكم، قبل أن يقضي الله لكم ورسوله ﷺ"[(١)]، "اجعلوا بينكم وبين غضب الملك الأعظم وقاية؛ فإن التقوى مانعة من أن تضعيوا حقه وتخالفوا أمره وتقدموا على شيء لم تعلموا رضاه فيه، وافتتح بالله؛ لأن الأدب معه هو الأصل الجامع للكل، والأس الذي لا يبنى إلا عليه.. فلا تكونوا متقدمين في شيء من الأشياء والله يقول الحق ويهدي السبيل، ورسول الله ﷺ يبلغ عنه لا ينطق عن الهوى، فليس علينا غير الاقتداء والاتباع، لا الابتداء والابتداع، سواء كان النبي ﷺ غائبًا أو حاضرًا بموت أو غيره، فإن آثاره كعينه، فمن بذل الجهد فيها هدي للأصلح"[(٢)].

يخاطب الله تعالى المؤمنين أن لا يفعلوا أمرًا ويقضوه غير أمر الله ﷻ وأمر رسوله ﷺ، وليحذروا من مخالفة ذلك؛ فإن الله سميع لأقوالهم، عليم بنياتهم.

---

(١) جامع البيان- الطبري (٢٦/ ١١٦).

(٢) نظم الدرر ٧/ ٢٢١ باختصار يسير.

وقولـه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ هـذا نـداء حبيب للنفـس المؤمنة، ييسـر كل تكليف ويهون كل مشقة، ويشـوّق كل قلب، فيسمع ويستجيب، لما فيه من استجاشة لقلوبهم بالصفة التي تربطهم به، وتشعرهم بأنهم له، وأنهم يحملون شارته، وأنهم عبيده، وأنهم هنـا لأمـر يقدره ويريـده.. فأولى لهم أن يقفوا بيـن يدي الله موقـف المنتظر لتوجيهه، يفعل ما يُؤمر، ويرضى بما يُقسم، ويسلم ويستسلم.

فهذه الآية تبين لنا وتوضح لنا أعظم آداب الإسـلام، وهو التأدب مع الله ﷻ ومع رسـوله ﷺ في جميع الأمور -سـواء كانت دينيـة أو دنيوية- وذلك بعـدم التقديم بين يدي الله ورسـوله، يتمثل هذا الأدب في: إدراك حدود العبد أمام الرب، فلا يسبق العبد المؤمن إلهه في أمرٍ أو نهي، ولا يقترح عليه في قضاء أو حكم، ولا يتجاوز ما يأمر به وما ينهى عنه، ولا يجعل لنفسه إرادة أو رأيا مع خالقه؛ تقوىً منه وخشيةً، وحياءً منه وأدبًا.

فهـو أدب مـع الله ورسـوله ﷺ في منهج التلقـي والتنفيذ، وهو أصـل من أصول التشريع والعمل، منبثقٌ من تقوى الله، وراجعٌ إليها، هذه التقوى النابعة من الشعور بأن الله سميع عليم.

"**والحاصـل أن النهي هنا وقـع عن أمور: الأول:** عن التقدم بيـن يديه بما لا يأذن به من الكلام. **والثاني:** عن رفع الصوت البالغ إلى حدٍّ يكون فوق صوته، سـواء كان في خطابه أو في خطاب غيره. **والثالث:** ترك الجفاء في مخاطبته ولزوم الأدب في مجاورته؛ لأن المقاولـة المجهورة إنما تكـون بين الأكفاء الذين ليـس لبعضهم على بعض مزية توجب احترامه وتوقيره"[1].

ولأهمية هذا الأمر سـنعرض أهم مظاهر الأدب مع الله ومع رسوله ﷺ والعلماء -لئلا نكون من الذين يقدمون بين يدي الله ورسوله- في المباحث التالية:

(١) فتح القدير ٥/ ٩٥.

المبحث الأول
الأدب مع الله تعالى

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴾.

هذه الآية أصل في وجوب الأدب مع الله تعالى، والمتأمل لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ يجد أن هذا الأدب له عدة صور منها:

➢ أولا: توحيد مصدر التلقي من الكتاب والسنة:

وهذا أمرٌ مهمٌ جدًا؛ حيث إن الله سبحانه أرسل إلينا رسولًا بمنهج يكون سبيلًا لحياةٍ أفضل في الدنيا والآخرة، ودعانا إلى الالتزام بذلك المنهج، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾ [الأنفال ٢٤].

"فحياة القلب والروح بعبودية الله تعالى، ولزوم طاعته وطاعة رسوله على الدوام"[١].

"فلا حياة لروحه وقلبه حتى ينفخ فيه الرسول من الروح الذي ألقى إليه.. فالإنسان مضطر إلى نوعين من الحياة: حياة بدنه التي بها يدرك النافع والضار، وحياة قلبه وروحه التي بها يميز بين الحق والباطل. وأكمل الناس حياة أكملهم استجابة لدعوة الرسول؛ فإن كلّ ما دعا إليه ففيه الحياة، فمن فاته جزء منه فاته جزء من الحياة، وفيه من الحياة بحسب ما استجاب للرسول"[٢].

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٣١٨.

(٢) الفوائد لابن القيم ١/ ٨٨- ٨٩ باختصار.

فالله سبحانه هو خالقنا، وهو أعلم بما يصلح حالنا، فمن سوء الأدب مع خالقنا أن نترك قوله تعالى، وقول رسوله ﷺ ونلتفت إلى غيره من الأقوال التي يكون فيها الضلال والشقاء، قال تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة ٥٠]. أي: "لا أعدل من الله في حكمه لمن عقل عن الله شرعه وآمن به وأيقن، وعلم أن الله تعالى أحكم الحاكمين وأرحم بخلقه من الوالدة بولدها؛ فإنه تعالى هو العالم بكل شيء، القادر على كل شيء، العادل في كل شيء"(١).

وقد أمر الله ﷻ بطاعته وطاعة رسوله عليه السلام في كثير من الآيات، مثل قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٣٢].

وأنكر أشد الإنكار على من يأخذ من غير الكتاب والسنة، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٠٠]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٩].

وثبت أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أتى رسول الله بنسخة من التوراة، فسكت، فجعل يقرأ ووجه رسول الله يتغير، قال أبو بكر: ثكلتك الثواكل، ما ترى وجه رسول الله ﷺ؟ فنظر عمر إلى وجه رسول الله، فقال: أعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله ﷺ، وقال ﷺ: «**والذي نفس محمد بيده لو بدا لكم موسى فاتبعتموه وتركتموني لضللتم عن سواء السبيل، ولو كان حيًا وأدرك نبوتي لاتبعني**»(٢).

(١) محاسن التأويل ٤/ ١٦٠.

(٢) مسند أحمد ٣/ ٣٨٧ (١٥١٩٥)، شعب الإيمان ١/ ١٩٩ (١٧٦)، مجمع الزوائد ١/ ١٧٣-١٧٤، وله شواهد كثيرة تقويه. وأخرج الألباني رواية جابر بن عبدالله أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض الكتب قال فغضب وقال: «**أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية**» قال الألباني: حديث حسن، إسناده ثقات غير مجالد -وهو ابن سعيد- فإنه

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال له النبي ﷺ لما بعثه إلى اليمن «**بم تحكم فيهم؟**» قال: بكتاب الله تعالى، فقال رسول الله ﷺ: «**فإن لم تجد؟**» قال: بسنة رسول الله. قال ﷺ: «**فإن لم تجد**» قال: أجتهد رأيي. فضرب في صدره وقال: «**الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله ﷺ لما يرضي الله**»(١).

➢ **ثانيا: عدم تقديم حكم غير الله على حكم الله في جميع شؤون الحياة:**

قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

فقد "أقسم الرب سبحانه بنفسه على نفي الإيمان عن هؤلاء الذين يقدمون العقل على ما جاء به الرسول، وقد شهدوا هم على أنفسهم بأنهم غير مؤمنين بمعناه وإن آمنوا بلفظه"(٢).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

ضعيف، ولكن الحديث حسن له طرق أشرت إليها في المشكاة ١/ ٨ (١٧٧) ثم خرجت بعضها في الإرواء ٦/ ٣٨.

(١) سنن الترمذي كتاب الأحكام باب ما جاء في القاضي كيف يقضي (١٣٢٧). سنن أبي داود كتاب الأقضية باب اجتهاد الرأي في القضاء (١٥٩٢). قال صاحب تحفة الأحوذي: وهذا الحديث وإن تكلم فيه بعض أهل العلم فالحق أنه من قسم الحسن لغيره وهو معمول به. تحفة الأحوذي (٧/ ٣٦٧). ثم إن هذا الحديث له شواهد كثيرة منها ما ورد عن شريح أنه "كتب إلى عمر يسأله، فكتب إليه أن اقض بما في كتاب الله، فإن لم يكن في كتاب الله فبسنة رسول الله، فإن لم يكن في كتاب الله ولا في سنة رسول الله فاقض بما قضى به الصالحون، فإن لم يكن في كتاب الله ولا في سنة رسول الله ولم يقض به الصالحون فإن شئت فتقدم وإن شئت فتأخر، ولا أرى التأخر إلا خيرا لك، والسلام عليكم" سنن النسائي كتاب آداب القضاء باب الحكم باتفاق أهل العلم (٣٥٩٩).

(٢) الصواعق المرسلة ٣/ ٨٢٨.

"وهـذا صريح في إبطال التقليد، والمنع من رد المتنازع فيه إلى رأي أو مذهب أو تقليد"[(١)].

" فـدلَّ هذا على أن طاعة الله ورسـوله وتحكيم الله ورسـوله هو سـبب السـعادة عاجـلًا وآجلًا، ومن تدبر العالم والشـرور الواقعة فيه علم أن كل شـر في العالم سـببه مخالفة الرسول والخروج عن طاعته، وكل خير في العالم فإنه بسبب طاعة الرسول"[(٢)].

ولم يقل: (وإلى رسـوله) إعلامًا بأن ما رُدَّ إلى الله فقد رُدَّ إلى رسـول الله، وما رُدَّ إلى رسول الله فقد رُدَّ إليه سبحانه، وأن ما حكم به فقد حكم به رسوله ﷺ وما حكم به رسوله ﷺ فهو حكمه سبحانه.

فالله سبحانه أمرنا أن نلتزم بطاعته، فإذا تنازعنا في شيء نرده إلى الله وإلى رسوله، ولا نرده إلى غيرهما.

➢ ثالثا: صرف العبادة له وحده:

فـالله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ هـو الخالـق المالك المدبـر لهذا الكـون، لذا فهو المسـتحق وحـده للعبادة، فمن سـوء الأدب مـع الله تعالى صرف أي نوع من أنـواع العبادة لغيره سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، قـال تعالـى: ﴿ إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ [العنكبوت: ١٧].

ويدخـل في هذا إخـلاص العمل لله وحده دون رياء ولا سـمعة، قال تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴾ [الكهف: ١١٠].

---

(١) إعلام الموقعين ٢/ ١٧٠.

(٢) الرسالة التبوكية ص٧٧.

رابعا: تعظيم الله تعالى وإجلاله:

قال تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر: ٦٧].

تعظيم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو أصل وحقيقة العبادة، فلقد أمر الله تعالى عباده بتعظيمه، وتعظيم أوامره ونواهيه، وشرائعه ورسله، وكتبه المنزلة، وبالأخص كتابه الخاتم: القرآن الكريم.

فتعظيم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أمرٌ واجبٌ على كل مؤمن ليحقق بذلك حسن الأدب مع خالقه الذي به يحسن توحيده لله، وهذا التعظيم يكون بالمبادرة إلى طاعة الله وعمل الخير، والبعد عن المعصية والشر والفساد.

خامساً: الخوف من الله:

وهو من أعظم الأدب مع الله؛ لأن ذلك الخوف ينشأ من معرفة قدرة الله وعظمته وشدة بطشه وبأسه، وهذا الخوف يجعل المسلم مقبلًا على طاعة الله تعالى، ويمنع المسلم من الوقوع في معصية الله تعالى، ويورث المسلم التعلق بالله والبعد عن المخلوقين وعدم الخوف منهم، قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴾ [الزمر: ١٦]. وقال تعالى: ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٠]. وقال تعالى عن المخالفين: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ﴾ [الأنعام: ٩١].

سادسًا: محبة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أكثر من أي شيء:

وهذا من أعظم الأدب مع الله عَزَّوَجَلَّ، فالإنسان متى شاهد بعين بصره وبصيرته نِعم الله سبحانه عليه من خلقٍ ورزقٍ وتسخير الكون كله له، وجب عليه أن يحب صاحب

هـذه النعم، وأن يكون هذا الحب غالبًا على كل شـيء، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقـرة: ١٦٥]، وقـال ﷺ: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما**» الحديث[(١)].

ويترتـب علـى هـذا الحـب: ألا يحـب إلا ما يحبـه الله مـن الأعمـال الصالحة، والصحبـة الصالحة، والأكل الطيب الصالح، وغيرها مما يحبه الله شـرعًا، وأن يبغض كل ما يبغضه الله تعالى من الكفر والنفاق والمعصية والعمل الخبيث وما يوصل إليهما من أسباب وأعمال وأوصاف.

ويترتب على هذا الحب طاعة الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ إذ هي من لوازم المحبة فقد أحسن من قال:

تعصي الإلـه وأنـت تظهر حبه ... هـذا لـعمـري في الـقـيـاس بديع
لـو كـان حبك صـادقا لأطعته ... إن الـمـحـب لـمـن يـحـب مطيع

➢ سابعا: التوكل على الله وحده:

وهذا أدب يتضح فيه مدى تأدب الإنسـان مع الله، فالتوكل على الله دليل على قوة إيمـان العبد بالله، فالعبد كلما قوي إيمانه زاد توكله على الله تعالى، قال تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [المائـدة: ٢٣]. "جعل التوكل شـرطًا في الإيمان، فدل على انتفاءِ الإيمان عند انتفاء التوكل"[(٢)].

➢ ثامنًا: دعاء الله، واللجوء إليه، والانكسار بين يديه:

هـذه العبـادات الثلاث مـن أَجَلِّ العبـادات التي يحبها الله ﷻ؛ إذ هـي دليلٌ على

(١) صحيـح البخـاري كتـاب الإيمان باب حـلاوة الإيمان (٢١)، ومسـلم كتاب الإيمان بـاب خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان (٤٣).

(٢) طريق الهجرتين ١/ ٢٥٥.

تعظيم العبد لله تعالى، وإعطاء الله ﷻ حقَّه من العبودية، والخضوع له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وانصراف العبد عن أي أحد غير الله تعالى.

وهذه العبادات أمرٌ من الله تعالى، قال ﷻ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

وهذه الإجابة لا تكون إلا إذا كان الدعاء بانكسارٍ وخضوعٍ وذلّ، قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩].

➢ تاسعا: كثرة ذكر الله تعالى:

حيث أن الإنسان إذا أحب أحدًا داوم على ذكره، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠]، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أولى بأن يذكر ويشكر دائما لأنه هو صاحب النعم أولا و أخيرا، وهذا من باب الأدب مع الله وهو من لوازم الإيمان بالله تعالى قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١].

➢ عاشرا: إسناد الخير لله تعالى.

فمن الأدب مع الله ﷻ عدم نسبة الشَّرِ إلى الله ﷻ فقد ثبت في دعاء استفتاح الصلاة ما رواه علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا قام إلى الصلاة، **«لبيك وسعديك والخير كله في يديك، والشر ليس إليك»**(١).

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في شرح الحديث: "قال الخطَّابي وغيره: فيه الإرشاد إلى الأدب في الثَّناء على الله تعالى، ومدحه بأن يُضاف إليه محاسن الأمور دون مساويها على جِهة الأدب"(٢).

---

(١) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه (٧٧١).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ٣ / ١٢١.

وقد أشار ابن القيم إلى هذا الموضوع بقوله: "وأضاف النعمة إليه، وحذف فاعل الغضب لوجوه: منها: أن النعمة هي الخير والفضل، والغضب من باب الانتقام والعدل، والرحمة تغلب الغضب، فأضاف إلى نفسه أكمل الأمرين وأسبقهما وأقواهما، وهذه طريقة القرآن في إسناد الخيرات والنعم إليه، وحذف الفاعل في مقابلتهما، كقول مؤمني الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾ [الجن: ١٠]، ومنه قول الخضر في شأن الجدار واليتيمين: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا﴾ [الكهف: ٨٢]، وقال في خرق السفينة: ﴿فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩] ثم قال بعد ذلك: ﴿وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِي﴾ [الكهف: ٨٢]"[(١)].

هذه الآداب وغيرها مما يجب على المسلم أن يتحلى بها مع ربه -جل وعلا- كي لا يكون من الذين يقدمون بين يدي الله ورسوله، فالذي لا يتلقى عن الله، ولا يتحاكم إلى الله، والذي يصرف العبادة لغير الله، والذي لا يعظم الله، ولا يحب الله، ولا يدعو الله، كل هؤلاء من الذين أساؤوا الأدب مع الله ﷻ ولم يقدروه حق قدره، وهم الذين ينبههم الله بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾.

---

(١) مدارج السالكين ١/ ٣٥.

المبحث الثاني

الأدب مع رسول الله ﷺ

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ (١) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ (٢) إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ (٣) إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ (٤) وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾.

توضح لنا هذه الآيات كيفية الأدب مع رسول الله ﷺ، ومن معاني هذه الآيات نستطيع أن نخرج ببعض الآداب التي أُمرنا أن نلتزم بها:

◈ أولًا: عدم الإسراع بقول أو فعل قبل أن يقول فيه الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أو رسول الله ﷺ:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴾.

في الآية إشارة إلى وجوب احترام رسول الله وعدم تقديم قول أحد على قوله، وعدم إصدار الأحكام قبل معرفة قول رسول الله ﷺ فيها.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وإذا كان سبحانه قد نهاهم أن يرفعوا أصواتهم فوق صوته، فكيف برفع معقولاتهم فوق كلامه وما جاء به؟!"[(١)]، "فقد نهى عن التقديم بين يديه فأي تقديم أبلغ من تقديم عقله على ما جاء به، قال غير واحد من السلف: ولا تقولوا

(١) الصواعق المرسلة ٣/ ٩٩٦.

حتى يقول، ولا تفعلوا حتى يأمر"[١].

وقال السعدي: "وفي هذا النهي الشديد عن تقديم قول غير الرسول على قوله ﷺ؛ فإنه متى استبانت سنة رسول الله ﷺ وجب اتباعها وتقديمها على غيرها كائنًا ما كان"[٢].

◈ ثانيًا: الحرص على اتباع النبي ﷺ ولزوم سنته:

لأن ذلك برهان على صدق محبة الله تعالى ومحبة رسوله ﷺ قال تعالى: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [آل عمران: ١٨].

وقول النبي ﷺ: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»[٣].

ويترتب على ذلك نبذ التقليد والظنّ والوهم في التعليم، ولعل ذلك أهم ما جاء به الإسلام، فقد دعا الناس إلى التفكير والعلم وطلب الدليل، وقد أخذ السلف بهذا التوجيه الرباني الكريم.

وروى عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادته، فلما أُخبروا كأنهم تقالّوها، فقالوا: أين نحن من النبي ﷺ؟! قد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخّر. فقال أحدهم: أمّا أنا فأصلي الليل أبدًا. وقال الآخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر. وقال آخر: أما أنا فلا أتزوج النساء أبدًا. فجاء رسول الله ﷺ

---

(١) الصواعق المرسلة ٣/ ٩٩٧.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ٧٩٩.

(٣) سنن أبي داود كتاب السنة باب لزوم السنة (٤٦٠٧)، وجامع الترمذي باب ما جاء في الأخذ بالسنة ونبذ البدع (٢٦٦٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٧٣٥).

فقال: «إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[١].

فلا بد أن يجعل المسلمُ قدوته محمدًا ﷺ كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١] فالتأسي به ﷺ دليل على أن المرء صاحب أدبٍ مع رسول الله ﷺ ولا يمكن أن يصلح حال الناس في هذا الوقت وفي كل وقت إلا بالتأسي برسول الله في كل شؤون حياتهم.

◈ ثالثا: التأدب مع رسول الله في الاستماع والإنصات:

أي عندما يتكلم رسول الله ﷺ ينصت لحديثه بأدبٍ وحضور ذهن من غير قطع لكلامه ﷺ، ويدلنا على ذلك الحادثة الغريبة التي تدل على عظيم أدب الصحابة مع رسول الله ﷺ، ففي الحديث عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: خطبنا النبي ﷺ يوم النحر، فقال: «أي شهر هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه. فقال: «أليس ذا الحجة؟» قلنا بلى! قال: «أي بلد هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه. فقال: «أليس البلد الحرام؟» قلنا بلى. فقال: «فأي يوم هذا؟» فقلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أن سيسميه بغير اسمه. فقال: «أليس يوم النحر؟» قلنا بلى.." الحديث[٢].

فهذه صورة من الأدب ومن الحرج ومن التقوى التي جعلتهم -وهم يعلمون حق العلم- أن لا يجيبوا إلا بقولهم: "الله ورسوله أعلم"؛ خشية أن يكون قولهم تقديمًا بين يدي الله ورسوله.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح(٥٠٦٣). واللفظ له، ومسلم في كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه (١٤٠١).

(٢) صحيح البخاري كتاب العلم باب رب مبلغ أوعي من سامع (٦٧).ومسلم كتاب القسامة والمحاربين باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال (١٦٧٩).

وذكر بعض العلماء أن الاستماع إلى حديث رسول الله ﷺ بعد موته بأدبٍ من التأدب مع رسول الله ﷺ، قال القاضي أبو بكر بن العربي: "حرمة النبي ميتًا كحرمته حيًا، وكلامه المأثور بعد موته في الرفعة مثال كلامه المسموع من لفظه، فإذا قرئ كلامه وجب على كل حاضر ألا يرفع صوته عليه ولا يُعرض عنه، كما كان يلزمه ذلك في مجلسه عند تلفظه به"(١).

عن يحيى بن عبدالله بن بكير قال: "كان مالك إذا عرض عليه الموطأ تهيأ ولبس ثيابه وتاجه -أو ساجه- وعمامته، ثم أطرق فلا يتنخم ولا يبزق، ولا يعبث بشيء من لحيته حتى يفرغ من القراءة، إعظامًا لحديث رسول الله ﷺ"(٢).

قال الخزاعي: "كان مالك بن أنس إذا أراد أن يخرج يحدِّث، توضأ وضوءه للصلاة، ولبس أحسن ثيابه، وقلنسوته، ومشط لحيته. فقيل له في ذلك. فقال: أوقر به حديث رسول الله ﷺ"(٣).

◈ رابعا: عدم رفع الصوت في مجلسه سواء في الحديث معه ﷺ أو مع غيره:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴾.

ورد في سبب نزول هذه الآية: "كاد الخيّران أن يهلكا؛ أبو بكر وعمر رضي الله عنهما رفعا صوتهما عند النبي ﷺ حين قدم عليه ركب بني تميم، فأشار أحدهما بالأقرع بن

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٦/ ٣٠٧.

(٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ٣/ ٣٣.

(٣) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ٣/ ٤٣.

حابس، وأشار الأخر برجل آخر، فقال أبو بكر لعمر: ما أردتَّ إلا خلافي! فقال عمر: ما أردتُّ خلافك! فارتفعت أصواتهما في ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾"(١).

فمن "الأعمال ما يُحبط ولا يدرى أنه محبط؛ ليكون العامل كالماشي في طريق خطر لايزال يتوقى خطره ويديم حذره"(٢).

وسبب النهي أن رفع الصوت يدل على قلة الاحتشام وترك الاحترام، وهو يؤدي إلى ذهاب ثواب الأعمال الصالحة وهم لا يشعرون بذلك، حتى إنه قد كره بعض أهل العلم رفع الصوت عند قبره ﷺ كما ذكر ذلك الإمام القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣).

وقد ورد عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه سمع صوت رجلين في مسجد رسول الله ﷺ قد ارتفعت أصواتهما فجاء، فقال: من أين أنتما؟ قالا: من أهل الطائف. فقال: لو كنتما من أهل البلد لأوجعتكما؛ ترفعان صوتكما في مسجد رسول الله ﷺ(٤).

و"كان مالك بن أنس إذا أراد أن يجلس للحديث اغتسل، وتبخر، وتطيب، فإن رفع أحد صوته في مجلسه زبره، وقال: قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾ [الحجرات: ٢]، فمن رفع صوته عند حديث رسول الله فكأنما رفع صوته فوق صوت رسول الله ﷺ"(٥).

---

(١) صحيح البخاري كتاب التفسير باب قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾ برقم (٤٨٤٥).

(٢) نظم الدرر ٧/ ٢٢٣.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٦/ ٣٠٧.

(٤) صحيح البخاري كتاب الصلاة باب رفع الصوت في المسجد (٤٧٠).

(٥) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ٣/ ١١١.

"وقد كره بعض العلماء رفع الصوت عند قبره عليه السلام وكره بعض العلماء رفع الصوت في مجالس العلماء تشريفًا لهم؛ إذ هم ورثة الأنبياء"[١].

قال شيخ الإسلام: "فإذا ثبت أن رفع الصوت فوق صوت النبي، والجهر له بالقول يُخاف منه أن يكفر صاحبه وهو لا يشعر، ويحبط عمله بذلك، وأنه مظنة لذلك وسبب فيه؛ فمن المعلوم أن ذلك لِمَا ينبغي له من التعزير والتوقير والتشريف والتعظيم والإكرام والإجلال. ولِمَا أن رفع الصوت قد يشتمل على أذى له واستخفاف به -وإن لم يقصد الرافع ذلك- فإذا كان الأذى والاستخفاف الذي يحصل في سوء الأدب من غير قصدِ صاحبِهِ يكون كفرًا؛ فالأذى والاستخفاف المقصود المتعمد كفرٌ بطريق الأَولى"[٢].

وقال ابن القيم: "فإذا كان رفع أصواتهم فوق صوته سببا لحبوط أعمالهم فكيف تقديم آرائهم وعقولهم وأذواقهم وسياساتهم ومعارفهم على ما جاء به ورفعا عليه؟ أليس أولى أن يكون محبطا للعمل"[٣].

وعلى العكس، فقد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾.

"مدح من غض صوته عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، بأن الله امتحن قلوبهم للتقوى، أي: ابتلاها واختبرها، فظهرت نتيجة ذلك، بأن صلحت قلوبهم للتقوى، ثم وعدهم المغفرة لذنوبهم -المتضمنة لزوال الشر والمكروه- والأجر العظيم، الذي لا يعلم وصفه إلا الله تعالى، وفي الأجر العظيم وجود المحبوب"[٤].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٣٦١.

(٢) الصارم المسلول ص٥٥.

(٣) إعلام الموقعين ١/ ٤١.

(٤) تيسر الكريم الرحمن ص٧٩٩.

إنَّ أدب الصحابة مع النبي ﷺ في الحديث والخطاب وتوقيرهم له في القلوب توقيرًا ينعكس على نبراتهم وأصواتهم، ويميز شخص رسول الله ﷺ بينهم، ويميز مجلسه.

◈ خامسا: لا يخاطب الرسول ﷺ باسمه وكنيته كما يخاطب الناس بعضهم بعضا:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣].

عن ابن عباس قال: "كانوا يقولون: يا محمد، يا أبا القاسم، فنهاهم عن ذلك إعظامًا لنبيه، فقالوا: يا نبي الله، يا رسول الله"[١]، فأمرهم أن يشرفوه ويوقروه، فيقولوا: يا رسول الله في رفق ولين[٢]، "والظاهر استمرار ذلك الأدب بعد وفاته إلى الآن"[٣].

فيلفت الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نظر المؤمنين إلى ضرورة توقير الرسول ﷺ عند الاستئذان، وفي كل الأحوال، فلا يُدعى باسمه، أو كنيته، كما يدعو المسلمون بعضهم بعضا، وإنما يُدعى بتشريف الله له: يا نبي الله أو يا رسول الله.. فلا بد من التوقير لرسول الله ﷺ حتى تستشعر توقيره في كل كلمة منه وكل توجيه.

وهذه لفتة ضرورية، فلا بد للمربي من وقار، ولا بد للقائد من هيبة، وفرق بين أن يكون هو متواضعًا ليِّنًا هيِّنا، وأن ينسوا هم أنه مربيهم فيدعونه دعاء بعضهم لبعض، فيجب أن تبقى للمربي منزلة في نفوس من يربيهم، راسخة في قرارة شعورهم، ويستحيون أن يتجاوزوا معها حدود التبجيل والتوقير.

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٦٥٤، الدر المنثور ١١/ ١٢٧.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٢/ ٣٢٢.

(٣) روح المعاني مج٦ ج١٨/ ٢٢٥.

فعدم الأدب مع رسول الله يؤدي إلى حبوط العمل، ومعنى الآية: "إنما نهيناكم عن رفع الصوت عنده؛ خشية أن يغضب من ذلك فيغضب الله تعالى لغضبه، فيحبط عمل من أغضب رسوله"(١).

إن في الوعيد بذهاب ثواب أعمال من رفع صوته فوق صوت النبي ﷺ -ولو بغير قصد- دليل على خطورة عدم الأدب مع رسول الله ﷺ.

فهذا الذي يسيء الأدب مع الرسول ﷺ وهو لا يشعر مُتوَعَد بذهاب ثواب عمله الصالح؛ ولهذا خاف الصحابة خوفًا شديدًا من هذه الآية حتى أن أحد الصحابة اعتزل مجلسه ﷺ.

فعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ افتقد ثابت بن قيس، فقال رجل: يا رسول الله أنا أعلم لك علمه، فأتاه فوجده جالسًا في بيته منكسًا رأسه، فقال له: ما شأنك؟ فقال: شر. كان يرفع صوته فوق صوت النبي فقد حبط عمله وهو من أهل النار. فأتى الرجل النبي فأخبره أنه قال كذا وكذا، فقال النبي ﷺ: «**اذهب إليه فقل له: إنك لست من أهل النار ولكنك من أهل الجنة**»(٢).

فهذا الحديث يدل على شدة ما كان يعلمه الصحابة من أن سوء الأدب مع رسول الله سبب في إحباط العمل ومن ثم إذا حبط العمل وجب دخول النار.

وأما في زماننا هذا فإن الناس تناسوا هذا الوعيد الشديد، بل وتجرؤوا على رسول الله ﷺ بشخصه، فنال منه أقوام ما نالوا، ووصفوه بصفات لو وُصف بها أحدهم لطاش عقله وجنّ جنونه، وتخبط من المس غيرة على نفسه، عياذًا بالله من أحوالهم.

(١) تفسير القرآن العظيم ٧/ ٣٦٨.

(٢) صحيح البخاري كتاب التفسير باب قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾ (٤٨٤٦).

ونـال قـوم من أهـل بيتـه -وعلى الأخـص زوجاته أمهـات المؤمنيـن رضي الله عنهـن- بما لو وَصف كاتـب أو خطيب، إحدى زوجاتهم لثـارت ثائرتهم وما هدأت، والله المستعان على ما يصفون.

أما سـنته فقد جعلها قـوم مرتعًا لهم، فينكرون منها مـا لا يرضيهم أو ما لا تدركه أفهامهم وعقولهم التي لم تخل من شـبهٍ غَضَّةٍ، وغرورٍ طاغٍ، وزخرفِ قولٍ باطلٍ، قال تعالـى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٢].

ومال قوم إلى تأويل مقيت بلا حجة ولا برهان، وذهب آخرون إلى ضرب بعضها ببعـض، وزعموا التناقض، وذهبـوا يتتبعون الرخـص والتأويلات الفاسـدة المخالفة لنص الشارع الحكيم، وزعم قوم محبتها ولكن أخطؤوا الطريق في العمل بها، فحفظوا حروفها ولكن ضيعوا العمل بها وتحكيمها في كل شأن من شؤونهم.

فالله نسـأل أن يعيد هذه الأمة إلى عزهـا ومجدها على الوجه الصحيح، كتاب الله وسـنة نبيه الحبيب ﷺ بفهم صحيح ودراية ودراسـة متأنية، فالشرع لا يناقض العقل، إنما قد يحيره في الفهم، كما نص عليه شيخ الإسلام ابن تيمية(١) وغيره من أهل العلم.

◈ سادسا: الصبر على التزام الأدب مع رسول الله:

قـال تعالـى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

وصـف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الذيـن وقفوا ونادوا رسـول الله وهو في داخـل بيته أنهم ليس عندهم عقل؛ لأن العاقل يصبر، ويسـتفيد من عقله التأني والتريث، ويضع الأمور

(١) انظر درء التعارض بين العقل والنقل ٧/ ٣٢٧ و٩/ ٤٩، والصفدية ١/ ٢٤٦.

مواضعها، حيث إن الرسول ﷺ عند أهله وسيخرج بعد فترة للصلاة أو غيرها، فعليهم أن يصبروا مراعاة للأدب مع الرسول ﷺ وتوقيرًا له بعدم المشقة عليه.

"ذمهم الله بعدم العقل؛ حيث لم يعقلوا عن الله الأدب مع رسوله واحترامه، كما أن من العقل وعلامته استعمال الأدب؛ فأدب العبد عنوان عقله وأن الله مريد به الخير"[(١)].

"**يقول تعالى ذكره:** ولو أن هؤلاء الذين ينادونك يا محمد من وراء الحجرات صبروا فلم ينادوك حتى تخرج إليهم إذا خرجت، لكان خيرًا لهم عند الله؛ لأن الله قد أمرهم بتوقيرك وتعظيمك، فهم بتركهم نداءك تاركون ما قد نهاهم الله عنه، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يقول تعالى ذكره: الله ذو عفو عمن ناداك من وراء الحجاب، إن هو تاب من معصية الله بندائك كذلك، وراجع أمر الله في ذلك وفي غيره، رحيمٌ به أن يعاقبه على ذنبه ذلك من بعد توبته منه"[(٢)].

"فهذه الآية تعليم للأمة أن تتخلق بخلق الصبر والأناة والرفق والحلم، وألا تشق على الرؤساء في الحديث واللقاء، فإن الرئيس كثير المشاغل عظيم المهام، لا يتسع وقته لها جميعًا، ولا يمكن أن يكون وقته موزعًا وفق أهواء الناس ومطالبهم، فعليهم أن يدَعوا له وقته ليصرفه فيما يراه خيرًا لجماعته، ولا يتأولون من ذلك ولا يظنون به الظنون فإنما تلك من ضرورات تنظيم الأعمال، ولا بد من النزول على حكمها حتى لا تفوت المصالح باضطراب الأوقات وخلل تنظيمها"[(٣)].

◈ سابعا: محبة الرسول ﷺ:

وهذا من أعظم الأدب مع رسول الله ﷺ؛ حيث إنه المبلِّغ عن الله تعالى، فهو

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٧٩٩.
(٢) جامع البيان ٢٢/ ٢٨٥.
(٣) من وحي القرآن (٣/ ٦٩).

أعظم الخلق إحسانًا إلى المرء، فهو الذي أرشدنا إلى الصراط المستقيم، طريق الجنة قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣].

وقد بذل ﷺ كلَّ جهده في ذلك، وكل مسلم في هذا العالم إنما هو ثمرة لدعوة محمد ﷺ، ولذا يجب أن تكون محبته أعظم عند المسلم من أي شيء، قال عليه الصلاة والسلام: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما..**» الحديث[١]. وقال ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين**»[٢].

◈ ثامنًا: كثرة الصلاة على النبي ﷺ:

وذلك ينبع من معرفة المؤمن بوجوب الصلاة على النبي ﷺ عند ذكره وسائر مواضعها، وذلك تأدبًا مع الرسول ﷺ ولقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

ويستحب الصلاة على النبي ﷺ في كل وقت فإنها من أفضل الأذكار، قال ﷺ: «**من صلى علي صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشرا**»[٣][٤].

---

(١) صحيح البخاري كتاب الإيمان باب حلاوة الأيمان (٢١). ومسلم كتاب الأيمان باب خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان (٤٣).

(٢) صحيح البخاري كتاب الإيمان باب حب الرسول من الإيمان (١٥). ومسلم كتاب الإيمان باب وجوب محبة رسول الله ﷺ أكثر من الولد والوالد والناس أجمعين (٤٤).

(٣) صحيح مسلم كتاب الصلاة باب الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد (٤٠٨).

(٤) للاستزادة حول موضوع الصلاة على النبي ﷺ يمكن مراجعة تفسير القرآن العظيم - ابن كثير ٦/ ٤٥٩ فقد أطال في قضية الصلاة على النبي وأنواعها والحث عليها وأفضل الأوقات للصلاة عليه ﷺ، وأيضًا تراجع كتب التفسير عن تفسيرهم لهذه الآية، وانظر هذا المبحث في موضوع تمجيد النبي ﷺ من بحث حقوق النبي ﷺ وأهل بيته من موضوعات سورة الأحزاب.

المبحث الثالث

الأدب مع العلماء

ليس من نافلة القول الحديث عن الأدب مع العلماء في هذا المقام فقد ربط العلماء بين الأدب مع الله ورسوله وبين الأدب مع العلماء؛ لأن العلماء هم الذين يبلغون عن الله وعن رسول الله ﷺ، ولذا فيجب الأدب مع من يحمل كلام الله وسنة رسول الله ﷺ، قال ﷺ: «**وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وإن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ولكن ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر**»[1].

وقد وعى المسلمون هذا الأدب الرفيع وتجاوزوا به شخص رسول الله ﷺ إلى كل أستاذٍ وعالم، لا يزعجونه حتى يخرج إليهم، ولا يقتحمون عليه حتى يدعوهم، ولا يرفعون أصواتهم عنده.

ومن أساء الأدب مع العلماء فقد أساء الأدب مع الله ومع رسول الله ﷺ لأن هذه الإساءة لن تقف عند أشخاص العلماء بل تتعدى إلى ما يحملونه من كتاب وسنة، وقد قال النبي ﷺ: «**من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب**»[2]، فإذا لم يكن العلماء من أولياء الله تعالى فمن سيكون من أولياء الله تعالى إذا؟! فقد روى الخطيب البغدادي عن الشافعي وأبي حنيفة رضي الله عنهما أنهما قالا: إن لم يكن الفقهاء أولياء الله فليس لله ولي[3]

---

(١) سنن أبو داود كتاب العلم باب الحث على طلب العلم (٣٦٤١). وصححه الألباني يرحمه الله في صحيح الجامع (٦٢٩٧).

(٢) صحيح البخاري كتاب الرقاق باب التواضع (٦٥٠٢).

(٣) مصرع التصوف (٢٠١).

فالأدب مع العلماء هو أدب مع الله ومع رسول الله ومع المنهج الذي ورثوه عن رسول الله ﷺ، والأدب أهم من العلم، ولذاك حرص رسول الله ﷺ على تأديب أصحابه، فأدبهم بآداب الإسلام حتى تحولوا من الجفاء والغلظة إلى الرفق وسعة الخلق ولين الجانب.

وذلك لأن للعلماء مكانة كبيرة في الدين، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] وقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

وعن معاوية بن أبي سفيان أن النبي ﷺ قال: «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين»[١].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ، أنه قال: «فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ليلة البدر، العلماء هم ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ولكن ورثوا العلم»[٢].

قال الحسن البصري رضي الله عنه: "كانوا يقولون: موت العالم ثلمه في الإسلام لا يسدها شيء ما اختلف الليل والنهار"[٣]

وغيرها من الأدلة التي تدل على فضل العلم والعلماء وهي كثيرة جدًّا في كتاب الله تعالى وسطور كتب السنة، مما يدل على فضل العلم والعلماء الذين هم ورثة الأنبياء.

فلا بد وأن نحفظ للعلماء مكانتهم في قيادة الأمة وإصلاحها، فالعلماء هم ورثة

---

(١) صحيح البخاري كتاب العلم باب من يرد الله به خيرًا يفقه في الدين (٧١). ومسلم كتاب الزكاة باب النهي عن المسألة (١٠٣٧).

(٢) سنن أبو داود كتاب العلم باب الحث على طلب العلم (٣٦٤١). وصححه الشيخ الألباني يرحمه الله في صحيح الجامع (٦٢٩٧).

(٣) سورة الحجرات دراسة تحليلية ص١٦٨.

الأنبياء فإذا لم يتعامل معهم بالأدب فمع من يكون الأدب؟! وكيف يؤخذ منهم القرآن والسنة بغير أدب؟! فكما تأدب الصحابة مع رسول الله ﷺ في تلقيهم منه العلم والحكمة، فواجب علينا أن نتأدب مع رسل وورثة رسول الله وهم العلماء.

ومن خلال النقاط التالية سنبين كيف يكون الأدب مع العلماء:

○ أولا: تقديرهم وإجلالهم واحترامهم والتواضع لهم:

ولقد بلغ السلف في ذلك مبلغًا عظيما، فقد ورد عن الربيع صاحب الشافعي -رحمهما الله- أنه قال: "ما اجترأت أن أشرب الماء والشافعي ينظر إليّ هيبة منه"[(١)].

وقال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وينبغي أن يتواضع لمعلمه ويتأدب معه وإن كان أصغر منه سنًّا وأقل شهرةً ونسبًا وصلاحًا، وينبغي أن ينظر إلى معلمه بعين الاحترام ويعتقد كمال أهليته ورجحانه"[(٢)].

"وقد أخذ ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا مع جلالته ومرتبته بركاب زيد بن ثابت الأنصاري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وقال: هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا"[(٣)].

و"ذكر أحد العلماء عند الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ وكان متكئًا من علة، فاستوى وقال: لا ينبغي أن يذكر الصالحون فنتكئ"[(٤)].

قال طاووس: "إن من السنة توقير العالم"[(٥)].

---

(١) التبيان في آداب حملة القرآن ص٣٨.

(٢) صحيح البخاري كتاب الإيمان باب حلاوة الإيمان (٢١)، ومسلم كتاب الإيمان باب خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان (٤٣).

(٣) تذكرة السامع والمتكلم ص٨٧. والأثر أخرجه الحاكم في المستدرك ٣/ ٤٢٣.

(٤) جامع بيان العلم وفضله ١/ ١٢٧.

(٥) جامع بيان العلم وفضله ١/ ٤٥٩.

قال العراقي: "لا ينبغي للمحدث أن يحدث بحضرة من هو أولى منه بذلك، وكان إبراهيم والشعبي إذا اجتمعا لم يتكلم إبراهيم بشيء"[(١)].

○ ثانيا: بذل الجهد في خدمتهم:

ومن نماذج ذلك ما ورد عن الشعبي رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: "صلى زيد بن ثابت على جنازة، ثم قربت له بغلة ليركبها، فجاء ابن عباس فأخذ بركابها، فقال له زيد: خل عنك يا ابن عم رسول الله ﷺ، فقال ابن عباس: "هكذا يُفعل بالعلماء والكبراء"[(٢)]. فهذا الموقف فيه من التواضع وخدمة العلماء ما يدلنا على فضل هذا العمل وفضل خدمة العلماء في كل الأمور ولا يترفع عن ذلك.

○ ثالثا: تعظيم حرمتهم ورد غيبتهم فإن عجز عن ذلك قام وفارق المجلس:

وهذا عام مع جميع الناس فكيف مع العلماء؟ فالواجب معهم أشد، وقد قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: "وأن يرد غيبة شيخه إن قدر فإن تعذر عليه ردها فارق المجلس"[(٣)].

قال أبو العباس الحسن بن سفيان رَحِمَهُ اللَّهُ: "اتق الله في المشايخ، فربما استجيبت فيك دعوة"[(٤)].

قال الحافظ ابن عساكر -ناصحًا لإخوانه المسلمين، ومحذرًا من الطعن والتشكيك في العلماء العاملين، والأئمة المهتدين-: "اعلم يا أخي -وفقني الله وإياك لمرضاته، وجعلنا ممن يخشاه ويتقيه حق تقاته- أن لحوم العلماء مسمومة، وعادة الله

---

(١) الشذا الفياح في علوم ابن الصلاح ٣٨٧.

(٢) جامع بيان العلم ص١٧٠.

(٣) التبيان في آداب حملة القرآن ص٣٩.

(٤) سير أعلام النبلاء ١٤/ ١٥٩.

في هتك أستار منتقصيهم معلومة، وأن من أطلق لسانه في العلماء بالثلب ابتلاه الله قبل موته بموت القلب"[١].

ورحم الله إبراهيم بن أدهم إذ يقول: "كنا إذا رأينا الشاب يتكلم مع المشايخ في المسجد أيسنا من كل خير عنده"[٢]. والمقصود بقوله "يتكلم" أي يجادل ويماري ويتتبع زلاتهم ويعارضهم.

رابعا: عدم تتبع عثراتهم والتشهير بها:

قال الشعبي: "والله لو أصبت تسعًا وتسعين مرة، وأخطأت مرة واحدة لعدوا علي تلك الواحدة"[٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وليس لأحد أن يتتبع زلات العلماء، كما ليس له أن يتكلم في أهل العلم والإيمان إلا بما هم له أهل فإن الله تعالى عفا للمؤمنين عما أخطأوا كما قال تعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦]"[٤].

ويقول الشاطبي رَحِمَهُ اللهُ: "إن زلة العالم لا ينبغي أن يشنع عليها، ولا ينتقص من أجلها، أو يعتقد فيه الإقدام على المخالفة بحتًا، فإن هذا كله خلاف ما تقتضي رتبته في الدين"[٥].

وما أحسن ما قال سعيد بن المسيب -كما قال السخاوي-: "ليس من شريف، ولا عالم، ولا ذي فضل -يعني من غير الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ- إلاَّ وفيه عيب، ولكن من الناس

(١) المجموع في شرح المهذب للنووي ١/ ٢٤.
(٢) الجامع لآداب الراوي وأخلاق السامع للخطيب البغدادي ١/ ٢٠١.
(٣) سير أعلام النبلاء ٤/ ٣٠٨.
(٤) مجموع الفتاوى ٣٢/ ٢٣٩.
(٥) الموافقات ٥/ ١٣٦.

من لا ينبغي أن تذكر عيوبه، فمن كان فضله أكثر من نقصه، وهب نقصه لفضله"[١].

فالواجب على المسلم الصادق النصح لوجه الله تعالى لإحقاق الحق وهداية الناس لا للتجريح والتشهير والعدوان.

خامسا: الدعاء لهم:

ومن تطبيقات السلف لهذا الأمر قول أبي حنيفة: "ما صليت صلاة منذ مات حماد بن أبي سليمان -شيخه- إلاَّ استغفرت له مع والديَّ، وإني لاستغفر لمن تعلمت منه علمًا أو علمته علمًا"[٢].

وقال أبو يوسف القاضي تلميذ أبي حنيفة -رحمهما الله-: "إني لأدعو لأبي حنيفة قبل أبويَّ، وسمعت أبا حنيفة يقول: إني لأدعو لحماد مع والديَّ"[٣].

"فقد كان بعض المتقدمين إذا ذهب إلى معلمه تصدق بشيء وقال: اللهم استر عيب معلمي عني ولا تذهب بركة علمه مني[٤].

قال ابن جماعة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وينبغي أن يدعو له مدة حياته، ويرعى ذريته بعد وفاته، ويتعمد زيارة قبره والاستغفار له والصدقة عنه"[٥].

قال إسحاق بن راهويه: "قلَّ ليلة إلاَّ وأنا أدعو فيها لمن كتب عني، ولمن كتبنا عنه"[٦].

---

(١) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ- للسخاوي ص١١٨.
(٢) تهذيب الأسماء واللغات للنووي ـ٢/ ٢١٨.
(٣) تهذيب الأسماء واللغات للنووي ـ٢/ ٢١٩.
(٤) التبيان في آداب حملة القرآن ص٣٨.
(٥) تذكرة السامع والمتكلم ص٩٠.
(٦) فتح المغيث بشرح ألفية الحديث للعراقي- شرح السخاوي ٣/ ٣٠١.

وقال الحارث بن سُريج: "سمعت يحيى القطان يقول: أنا أدعو الله للشافعي، أخصه به"(١).

قال الإمام أحمد: ما بت منذ ثلاثين سنة إلاَّ وأنا أدعو للشافعي، واستغفر له(٢).

○ سادسًا: التأدب في الجلوس بين يديهم:

وذلك "بأن لا يتشاغل عنهم، ولا يتحدث في حضرتهم، ولا يستهزئ بهم؛ قال الصعلوكي رَحِمَهُ اللَّهُ: من قال لشيخه لم؟ -على سبيل الاستهزاء- لم يفلح"(٣).

قال الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه: "من حق المعلم عليك أن تسلم على الناس وتخصه دونهم بتحية، وأن تجلس أمامه، ولا تشيرنّ عنده بيدك، ولا تغمزن بعينك، ولا تقولن: "قال فلان خلاف ما تقول" ولا تغتابنّ عنده أحدًا ولا تشاور جليسك في مجلسه"(٤).

○ سابعا: الإنصات الجيد وعدم المقاطعة والجدال:

قال عطاء: "إن الرجل ليحدث بالحديث فأنصت له كأني لم أسمعه أبدا وقد سمعته قبل أن يولد"(٥)، هذا مع كل الناس فما بالك لو كان الذي يتكلم معلمًا أو شيخًا.

قال ابن جماعة: "وينبغي أن لا يقطع على الشيخ كلامه -أيَّ كلامٍ كان- ولا يسابقه فيه، بل يصبر حتى يفرغ الشيخ من كلامه ثم يتكلم، ولا يتحدث مع غيره والشيخ يتحدث معه أو مع جماعة المجلس"(٦).

---

(١) معرفة السنن والآثار للبيهقي ١/ ١٩٩ (٢٧٢).

(٢) وفيات الاعيان لابن خلكان ٤/ ١٦٤.

(٣) جامع بيان العلم وفضله ١/ ١٢٧.

(٤) التبيان في آداب حملة القرآن ص٣٩.

(٥) جامع بيان العلم وفضله ١/ ٢٠٩.

(٦) تذكرة السامع والمتعلم ص١٠٧.

قال الزهري: "كان أبو سلمةَ يماري ابن عباس؛ فحُرم بذلك علمًا كثيرًا"[١].

وقال الحافظ ابن عبدالبر: "وروينا من وجوه كثيرة عن أبي سلمة -وكان يجادل ويماري ابن عباس- قال: لو رفقت بابن عباس لاستخرجت منه علمًا كثيرًا"[٢].

ثامنا: عدم إزعاجهم في بيوتهم، وفي وقت شغلهم:

بين الله تعالى أهمية احترام حرمات العلماء وخصوصياتهم، في غير موضع من القرآن ومن ذلك، قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحجرات: ٤، ٥].

فهذه الآية تعليم للأمة أن تتخلق بخلق الصبر والأناة والرفق والحلم، وألا تشق على الدعاة في الحديث واللقاء، فإن الداعية كثير المشاغل عظيم المهام، لا يتسع وقته لها جميعًا، ولا يمكن أن يكون وقته موزعًا وفق أهواء الناس ومطالبهم، فعليهم أن يدعوا له وقته ليصرفه فيما يراه خيرًا، ولا يتأولون من ذلك ولا يظنون به الظنون؛ فإنما تلك من ضرورات تنظيم الأعمال، ولا بد من النزول على حكمها حتى لا تفوت المصالح باضطراب الأوقات وخلل تنظيمها.

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

هذه الآية فيها "حظر على المؤمنين أن يدخلوا منازل رسول الله ﷺ بغير إذن كما كانوا يصنعون ذلك في بيوته في الجاهلية وابتداء الإسلام، حتى غار الله تعالى على هذه

---

(١) جامع بيان العلم لابن عبدالبر ١/ ٥١٧.

(٢) المرجع السابق ١/ ٥١٩.

الأمة"[١]، فأمرهم ألا يدخلوا بيوت النبي ﷺ بغير إذن، وهذا لجميع المسلمين وليس خاصًا برسول الله وببيت رسول الله فقط، وإنما كان في حق رسول الله ﷺ أوجب.

وقد وعى المسلمون هذا الأدب العظيم مع رسول الله ﷺ، ومع كل عالم، لا يزعجونه حتى يخرج إليهم ولا يقتحمون عليه حتى يدعوهم.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: "إني كنت لآتي الرجل من أصحاب رسول الله ﷺ، فإذا رأيته نائمًا لم أوقظه، ولئن رأيته مغمومًا لم أسأله، وإن رأيته مشغولًا لم أسأله"[٢].

فتحرِّي الأوقات الـمُناسِبة للتواصل مع العلماء أمر مهم جدا، فلا يسأَل في كل وقتٍ، ولاسيَّما مع تيسُّر أدواتِ الاتصال والتواصُل، واختِلافِ الأوقاتِ بين الدول والمناطِق.

فينبغي مُراعاة ذلك؛ حتى لا يتسبَّبَ ذلك في إيذاءِ للعلماء، فللعالم الحقُّ في الراحةِ والعبادة والأكل والشُّرب والقراءة والجلوس مع الأهل، وغير ذلك مِن الحاجات والأغراض.

تاسعا: الصبر على ما يصدر من العلماء:

قال ابن جماعة: "أن يصبر على جفوة تصدر من شيخه، أو سوء خلق، ولا يصده ذلك عن ملازمته وحسن عقيدته، ويتأول أفعاله التي يظهر أن الصواب خلافها على أحسن تأويل، ويبدأ هو عند جفوة شيخه بالاعتذار والتوبة مما وقع، والاستغفار، وينسب الموجب إليه، ويجعل العتب عليه؛ فإن ذلك أبقى لمودة شيخه، وأحفظ لقلبه، وأنفع للطالب في دنياه وآخرته"[٣].

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٦/ ٤٥٤.
(٢) جامع بيان العلم وفضله ١/ ٢١٢.
(٣) تذكرة السامع والمتكلم لابن جماعة ص٩١.

قال بلال بن أبي بردة: "لا يمنعكم سوء ما تعلمون منا، أن تقبلوا أحسن ما تسمعون منا"[١].

قال الشافعي: قيل لسفيان بن عيينة: "إن قومًا يأتونك من أقطار الأرض، تغضب عليهم؟ يوشك أن يذهبوا ويتركوك، قال: "هم حمقى مثلك أن يتركوا ما ينفعهم لسوء خلقي!!"[٢].

ومن وصايا لقمان الحكيم لابنه: "جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك، ولا تجادلهم، خذ منهم إذا ناولوك، والطف بهم في السؤال، ولا تضجرهم، إن تأذيت به صغيرًا انتفعت به كبيرا"[٣].

---

(١) جامع بيان العلم وفضله للخطيب البغدادي ـ١/ ٥٢٣.

(٢) المصدر السابق ١/ ٢٢٣.

(٣) تهذيب الأسماء واللغات للنووي ـ٢/ ٧١-٧٢.




الفصل الثاني
نعمة الهداية والتوفيق

وفيه ستة مباحث:

المبحث الأول: نعمة الإيمان بالله ﷻ والإيمان بالنبي ﷺ.

المبحث الثاني: المنة لله وحده في التوفيق للهداية.

المبحث الثالث: مفهوم الهداية.

المبحث الرابع: مراتب الهداية وأقسامها.

المبحث الخامس: أسباب تحصيل الهداية.

المبحث السادس: واجب المسلم في نشر الهداية.




المبحث الأول
نعمة الإيمان بالله ﷻ والإيمان بالنبي ﷺ

يبين الله تعالى في هذه السورة -التي تؤصل الأدب مع الله ﷻ ومع رسول الله ﷺ- أن التوفيق لهذا الأدب هو محض توفيق من الله تعالى، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

يخاطب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى المؤمنين فذكرهم بنعمة النبي ﷺ بينهم، فهو الرسول الكريم البر الراشد، الذي يريد بكم الخير وينصح لكم، وهو أعلم بمصلحتكم، ويسعى لسعادتكم، وأنتم تريدون لأنفسكم من الشر والمضرة ما لا يوافقكم الرسول عليه رحمة بكم وإرشادا، قال تعالى: ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٦].

ولو يطيعكم الرسول ﷺ في كثير من الأمر الذي تريدونه، لشق عليكم ذلك، فعليكم بطاعة الرسول؛ لأنه هو الذي أعلم بمصلحتكم، قال تعالى: ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴾ [المؤمنون: ٧١].

ويمتن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على عباده أنه حبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم، بما أودع في قلوبهم من محبة الحق وإيثاره، وبما نصب على الحق من الشواهد والأدلة الدالة على صحته، وقبول القلوب والفطر له، وبما يفعله سبحانه من توفيقه للإنابة إليه.

وبأن الله سبحانه كرّه إليكم الكفر والفسوق بما أودع في قلوبكم من كراهية الشر،

وعـدم إرادة فعلـه، وبما نصبه من الأدلة والشـواهد على فسـاده ومضرته، وعدم قبول الفطرة له، وبما يجعل الله في القلوب من الكراهية له.

ثـم يمتن الله عليهـم بمنة أخرى وهي أن الذين حبب الله الإيمان إلى قلوبهم وكره في قلوبهـم الكفـر والفسـوق والعصيـان ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴾ أي: الذين صلحت علومهم وأعمالهم، واسـتقاموا على الدين القويم والصراط المستقيم وبالتالي يحصل لهم النعيم المقيم في جنة رب العالمين.

ثـم ينبههم الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أن هذا كله بفضلـه، لا بحولهم ولا قوتهم، وهو عليم بمن يشكر تلك النعم فيوفقه لها، ومن لا يشكرها ولا تليق به فيضع فضله حيث تقتضيه حكمته[١].

يقـول ابن القيم: "لم تكن محبتكم للإيمان وإرادتكم له وتزيينه في قلوبكم منكم، ولكن الله هو الذي جعله في قلوبكم كذلك، فآثرتموه ورضيتموه، فلذلك لا تقدموا بين يدي رسولي، ولا تقولوا حتى يقول، ولا تفعلوا حتى يأمر؛ فالذي حبب إليكم الإيمان أعلـم بمصالح عباده منكـم، وأنتم فلولا توفيقه لكم لما أذعنت في نفوسـكم للإيمان، فلم يكن الإيمان بمشـورتكم وتوفيق أنفسـكم، ولا تقدمتم به إليها، فنفوسـكم تقصر وتعجز عن ذلك، ولا تبلغه"[٢].

"**فأخبر سـبحانه أنه جعل في قلوب عباده المؤمنين الأمرين:** حبَّه وحُسـنَه الداعي إلى حبه، وألقى في قلوبهم كراهة ضده من الكفر والفسوق والعصيان، وإن ذلك محض فضلـه ومنته عليهم حيـث لم يكلهم إلى أنفسـهم، بل تولى هو سـبحانه هذا التحبيب

---

(١) تيسير الكريم الرحمن للسعدي ص٧٤٤ بتصرف.

(٢) مدارج السالكين ١/ ٤١٦.

والتزيين وتكريه ضده"[١].

"فإن كون رسول الله ﷺ بين ظهرانيهم أمر معلوم لا يخبر عنه، فالمقصود تعليم المسلمين باتباع ما شرع لهم رسول الله ﷺ من الأحكام ولو كانت غير موافقة لرغباتهم"[٢].

ففيه "التنبيه على جلالة محله ﷺ وأنهم لجهلهم بمكانه مفرّطون فيما يجب له من التعظيم، وفي أن شأنهم أن يتبعوه، ولا يتبعوا آراءهم"[٣].

وقوله: ﴿ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ﴾ "أي: لشقيتم، والعنت: المشقة، وإنما قال: "لو يطيعكم" ولم يقل: "لو أطاعكم"؛ للدلالة على أنهم كانوا يريدون استمرار طاعته ﷺ لهم، والحق خلاف ذلك، وإنما الواجب أن يطيعوه هم لا أن يطيعهم هو؛ وذلك أن رأي رسول الله ﷺ خير وأصوب من رأي غيره، ولو أطاع الناس في رأيهم لهلكوا، فالواجب عليهم الانقياد إليه والرجوع إلى أمره، وإلى ذلك الإشارة بقوله: ﴿ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ الآية"[٤].

"فلو أطاعكم رسولي في كثير مما تريدون لشق عليكم ذلك ولهلكتم وفسدت مصالحكم وأنتم لا تشعرون، ولا تظنوا أن نفوسكم تريد لكم الرشد والصلاح كما أردتم الإيمان، فلولا أني حببته إليكم وزينته في قلوبكم، وكرهت إليكم ضده لما وقع منكم، ولا سمحت به أنفسكم"[٥].

---

(١) شفاء العليل ص٥٧.

(٢) التحرير والتنوير٢٦/ ٢٣٤.

(٣) محاسن التأويل ٨/ ٥٢٥.

(٤) التسهيل لعلم التنزيل ٢/ ٣٧٥.

(٥) مدارج السالكين ١/ ٤١٦.

وقرن الله بين تحبيب الإيمان وتزيينه في قلوب المؤمنين، ولم يكتف بأحدهما في قوله: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَ ﴾ "فتحبيبه سبحانه الإيمان إلى عباده المؤمنين هو: إلقاء محبته في قلوبهم، وهذا لا يقدر عليه سواه. وأما تحبيب العبد الشيءَ إلى غيره فإنما هو بتزيينه، وذكر أوصافه، وما يدعو إلى محبته. فأخبر سبحانه أنه جعل في قلوب عباده المؤمنين الأمرين: حُبَّه، وحُسنَه الداعي إلى حبه"[١].

﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَ ﴾ "لما كانت المعاصي بعضها كفر، وبعضها ليس بكفر، فرق بينها، فجعلها ثلاثة أنواع: نوع منها كفر، ونوع منها فسوق وليس بكفر، ونوع عصيان وليس بكفر ولا فسوق، وأخبر أنه كرهها كلها إلى المؤمنين. ولما كانت الطاعات كلها داخلة في الإيمان، وليس فيها شيء خارج عنه، لم يفرق بينها فيقول: "حبب إليكم الإيمان والفرائض وسائر الطاعات" بل أجمل ذلك فقال: ﴿ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ ﴾، فدخل في ذلك جميع الطاعات"[٢].

وقوله: ﴿ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَ ﴾ "تعريض بأن الذين لا يطيعون الرسول ﷺ فيهم بقية من الكفر والفسوق، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ والمقصود من هذا أن يتركوا ما ليس من أحكام الإيمان"[٣].

(١) شفاء العليل ١/ ٥٧.

(٢) مجموع الفتوى ٧/ ٢٤٠.

(٣) التحرير والتنوير٢٦/ ٢٣٦.

والرشـد في قولـه تعالـى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴾ معناه "الاسـتقامة على طريق الحـق مـع تصلب فيه... والـذي أنتج الرشـاد: متابعة الحق، فإن الله تكفَّـل لمن تعمَّد الخيرَ وجاهد نفسه على البرِّ: بإصابة الصواب وإحكام المساعي المنافي للندم ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩]"[١].

فهـذا الامتنان يوحي بالاستسـلام لتوجيه الله وتدبيره، يوحـي بالاطمئنان إلى ما وراءه مـن خيـرٍ عليهم وبركة، وترك الاقتراح والاسـتعجال والاندفـاع فيما قد يظنونه خيـرًا لهم قبـل أن يختار لهم الله، فـالله يختار لهم الخير، ورسـول الله ﷺ فيهم، يأخذ بيدهم إلى هذا الخير.

(١) نظم الدرر ٧/ ٢٢٩.

المبحث الثاني
المنة لله وحده في التوفيق للهداية

يقـول الله تعالى: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَىَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ لقد منَّ هؤلاء الناس بالإسـلام وزعمـوا الإيمان، فجاء الرد من الله تعالى أن لا يمنوا بالإسلام، وأن المنة من الله عليهم لو صدقوا في دعوى الإيمان.

ونحن نقف أمام هذا الأمر الذي يتضمن حقيقة ضخمة يغفل عنها الكثير، وقد يغفل عنها بعض المؤمنين، وهي أن الإيمان أكبر المنن التي ينعم الله بها على العبد في الأرض.

فهذا كله من نعم الله علينا، حيث جعلنا مسـلمين، وأرسـل إلينا خاتم المرسـلين، وهدانا إلى الطريق المستقيم، ووعدنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بجنته يوم يقوم الناس لرب العالمين.

ولذلك كان رسـول الله ﷺ دائم الحمد لله والشكر له والثناء عليه، فعن أبي رفاعة الزرقي عن أبيه قال: "لما كان يوم أحد وانكفأ المشركون، قال رسول الله ﷺ: «**استووا حتـى أثني على ربـي** عَزَّ وَجَلَّ» فصاروا خلفه صفوفًـا فقال: «**اللهم لك الحمـد كله، اللهم لا قابض لما بسـطت، ولا باسـط لما قبضت، ولا هادي لمـن أضللت، ولا مضل لمن هديـت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرب لما باعدت، ولا مباعد لما قربت...**» الحديث[(١)].

"**قال القشيري**: من لاحظ شيئًا من أعماله وأحواله فإن رآها دون نفسه كان شركًا، وإن رآها لنفسـه كان مكرًا، فكيف يمنّ العبد بما هو شرك أو مكر؟! والذي يجب عليه

(١) مسند أحمد ٣/ ٤٢٤ ح(١٥٤٩٢) رجاله ثقات ولقد أشار بإرساله الإمام أحمد وقال الذهبي والحديث مع نظافة إسـناده غريب منكر. سنن النسائي الكبير (١٠٤٤٥)، وأخرجه الحاكم في المستدرك ١/ ٥٠٦ وقال: صحيح على شرطهما. انظر: الموسوعة الحديثية - مسند الإمام أحمد ٢٤/ ٢٤٨.

قبول المنة كيف يرى لنفسه على غيره منة؟! هذا لعمري فضيحة، والمنة تكدر الصنيعة إذا كانت من المخلوقين، وبالمنة تطيب النعمة إذا كانت من قبل الله"[(١)].

ويختم الله تعالى السورة بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ "فإنه لا تهديد أبلغ من إحاطة العلم، فكأنه قيل: لا تقدموا بين يديه فإن الله محيط العلم، فهو يعلم سركم وجهركم"[(٢)].

قال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُم﴾ أي: "إن كان إسلامهم حقًا فهو لخلاص أنفسهم فلا مِنَّةَ فيه لهم، وإن كان نفاقًا فهو للدفع عنهم، فالمنة فيه عليهم.

ثم قال: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ **يحتمل وجهين:**

أحدهما: أن الله أحق أن يمن عليكم أن هداكم للإيمان حتى آمنتم. وتكون المنة هي التحدث بالنعمة.

والثاني: أن الله تعالى ينعم عليكم بهدايته لكم، وتكون المنة هي النعمة، وقد يعبر بالمنة عن النعمة تارة وعن التحمد بها أخرى"[(٣)].

"فهذه حالة من أحوال من ادعى لنفسه الإيمان وليس به، فإنه إما أن يكون ذلك تعليمًا لله، وقد علم أنه عالم بكل شيء -كما مر بنا- وإما أن يكون قصدهم بهذا الكلام: المِنَّة على رسوله، وأنهم قد بذلوا له وتبرعوا بما ليس من مصالحهم، بل هو من حظوظه الدنيوية، وهذا تجمّل بما لا يجمل، وفخر بما لا ينبغي لهم أن يفتخروا

---

(١) نظم الدرر ٧/ ٢٤٢.

(٢) نظم الدرر ٧/ ٢٤٢.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٣٨.

على رسوله به؛ فإن المنة لله تعالى عليهم، فكما أنه تعالى يمن عليهم بالخلق والرزق، والنعم الظاهرة والباطنة، فمنته عليهم بهدايتهم إلى الإسلام، ومنته عليهم بالإيمان، أعظم من كل شيء"[(١)].

فبعد بيان حقيقة الإيمان التي لا يدركوها ولم يبلغوها، يتوجه إلى الرسول ﷺ بالخطاب عن منِّهم عليه بالإسلام، وهذا المن ذاته دليل على أن حقيقة الإيمان لم تكن قد استقرت بعد في تلك القلوب، وأن حلاوة الإيمان لم تكن بعد قد تذوقتها تلك الأرواح ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ﴾ لقد منوا بالإسلام، وزعموا الإيمان، فجاءهم الرد ﴿ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ﴾ أي: لا تمنوا بالإسلام، ﴿ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ ﴾ "-على ما زعمتم - مع أن الهداية لا تستلزم الاهتداء ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أي: في ادعاء الإيمان، وجوابه محذوف يدل عليه ما قبله، أي: فلله المنة عليكم، وفي سياق الآية لطف، وهو أنهم لما سموا ما صدر عنهم إيمانًا ومَنوا به، فنفى أنه إيمانٌ، وسماه إسلامًا، بأن قال: يمنون عليكم بما هو في الحقيقة إسلام وليس بجدير أن يمن به عليك، بل لو صح ادعاؤهم للإيمان فلله المنة عليهم بالهداية له لا لهم"[(٢)].

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ [الصافات: ١١٤، ١١٥]. وقال لموسى ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴾ [طه: ٣٧].

وقال الله عن أهل الجنة: ﴿ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴾ [الطور: ٢٧].

عن عبدالله بن زيد أن رسول الله ﷺ لما فتح حنينًا قسم الغنائم فأعطى المؤلفة قلوبهم، فبلغه أن الأنصار يحبون أن يصيبوا ما أصاب الناس فقام رسول الله ﷺ

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٨٠٢.

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ٥/ ٢١٧.

فخطبهم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بي؟ وعالة فأغناكم الله بي؟ ومتفرقين فجمعكم الله بي؟» ويقولون: الله ورسوله أمنّ. فقال: «ألا تجيبوني؟» فقالوا: الله ورسوله أمنّ[١].

"فهذا جواب العارفين بالله ورسوله، وهل المنة كل المنة إلا لله المانّ بفضله الذي جميع الخلق في منته، فمنة المنان ما طاب العيش إلا بها، وكل نعمة منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الدنيا والآخرة فهي منة يمن بها على من أنعم عليه"[٢].

فالإيمان هو أكبر المنن التي ينعم بها الله على عبد من عباده في الأرض، وهو أعظم من منَّة الوجود الذي يمنحه الله ابتداء لهذا العبد، وسائر ما يتعلق بالوجود من آلاء الرزق والصحة والحياة والمتاع.

إن الإيمان هو الذي يجعل لوجود الإنسان حقيقة مميزة، ويجعل له في نظام الكون دورًا أصيلًا عظيمًا، وأول ما يصنعه الإيمان -الذي يمن الله به علينا وتستقر حقيقته في قلب عبده- هو سعة تصوره لهذا الوجود، وارتباطاته به، ودوره فيه؛ وصحة تصوره للقيم والأشياء والأشخاص والأحداث من حوله؛ وطمأنينته في رحلته على هذه الأرض حتى يلقى الله، ومعايشته كل ما حوله، وأنسه بالله خالقه، خالق هذا الوجود، وشعوره بقيمته وكرامته، وإحساسه بأنه يقوم بدور مرموق يرضى الله عنه، ويحقق الخير لهذا الوجود كله، بكل ما فيه وكل من فيه.

فهو يعلم إذن لماذا جاء، كما أنه يعرف أين المصير، ولا يحار بين شتى الفكر، بل يقطع الرحلة ويؤدي الدور في طمأنينة وثقة، وفي يقين، وقد يرتقي في المعرفة الإيمانية

(١) صحيح مسلم باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوى إيمانه (١٠٦١).

(٢) التبيان في أقسام القرآن ١/ ٣٠.

فيقطع الرحلة ويؤدي الدور في فرح وانطلاق واستبشار، شاعرًا بجمال الهبة وجلال العطية، هبة العمر الممنوح له من يد الكريم المنان، الجميل اللطيف، الودود الرحيم، وهبة الدور الذي يؤديه -كائنًا ما كان من المشقة- لينتهي به إلى ربه في اشتياق وحب، ولذلك فهي منَّة كبرى لا يملكها ولا يهبها إلا الله، ولمن يعلم أنه يستحق هذا الفضل العظيم.

"والله سبحانه لم يرحم عباده في الدنيا برحمة ولم يحسن إليهم إحسانًا أعظم من إحسانه إليهم بهذا الدين القيم وهذه الشريعة الكاملة، ولهذا لم يذكر في القرآن لفظة المن عليهم إلا في سياق ذكرها كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]"[١].

وقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

"فرب العالمين الذي يتقلب الخلائق في بحر منته عليهم ومحض صدقته عليهم بلا عوض منهم ألبتة -وإن كانت أعمالهم أسبابًا لما ينالونه من كرمه وجوده- فهو المنان عليهم بأن وفقهم لتلك الأسباب وهداهم لها وأعانهم عليها وكملها لهم وقبلها منهم على ما فيها"[٢].

---

(١) بدائع الفوائد ٢/ ٤٠٥.

(٢) مدارج السالكين ١/ ٩٥.

المبحث الثالث

مفهوم الهداية

الهداية: الهُدى: ضدّ الضلال، والهدى: الرَّشادُ، والهادي من أَسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. وقد هَداه هُدىً وهَدْيًا وهِدايةً وهِديةً، وهَداه للدِّين هُدىً، وهَداه يَهْدِيه في الدِّين هُدىً. وقال الليث: ومعنى هَدَيْتُ لك في معنى بَيَّنْتُ لك. و"هُدَى الله" أَي: الصِّراط الذي دَعا إِليه، وهو طَرِيقُ الحقّ. وقال ابن بري: يقال هديته الطريق بمعنى عرّفته. **وقال ابن الأثير:** والهادي هو الذي بَصَّرَ عِباده وعرَّفَهم طَريقَ معرفته حتى أَقَرُّوا برُبُوبِيَّته، وهَدى كل مخلوق إِلى ما لا بُدَّ له منه في بَقائه ودَوام وجُوده"[١]. وقيل: "الهداية دلالةٌ بلطف"[٢].

"فالهداية هي الدلالة على طريقٍ من شأنه الإيصال -سواء حصل الوصول بالفعل في وقت الاهتداء أو لم يحصل- وتتضمن الهداية معاني، بعضها يقتضي التعدية بنفسه، وبعضها بـ"اللام"، وبعضها بـ"إلى"، وذلك بحسب اشتمالها على إرادة الطريق والإشارة إليها وتلويح السالك لها، فبملاحظة الإرادة يتعدى بنفسه، وبملاحظة الإشارة يتعدى بـ"إلى"، وبملاحظة التلويح يتعدى بـ"اللام"، وفي حذف أداة التعدية إخراج له مخرج المتعدي إلى المفعولين بالذات في الأساس، يقال: هداه للسبيل وإلى السبيل والسبيل هدايةً وهدى، وظاهره عدم الفرق بين المتعدي بنفسه وبحرف، والفرق ظاهر؛ فإن هداه لكذا أو إلى كذا، إنما يقال إذا لم يكن في ذلك فيَصِل بالهداية

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر ٥/ ٥٢٥، لِسَان العَرَب: مَادة (هدى) ١٥/ ٥٣٥.

(٢) التعاريف ص٧٣٩.

إليـه، وهداه كـذا إنما يقال لمن يكون فيه فيزداد ويثبت ولمـن لا يكون فيه فيَصِل، وما قيـل: إن المتعدي بغير واسـطة معناه إذهابٌ إلى المقصود وإيصال إليه، فلا يسـند إلا إلـى الله تعالـى كقولـه تعالـى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، ومعنـى اللازم إراءة الطريق فيسـند إلى غيره تعالى كقوله ﷻ: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [الشورى: ٥٢] وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ ﴾ [الإسـراء: ٩] = كل ذلك منقوض بقولـه تعالـى: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴾ [مريـم: ٤٣]، وقوله: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ [غافر: ٣٨] ونحوهما.

يقال: "هدَاه إلى الطريق" إذا أعلمه أن الطريق في ناحية كذا، و"هداه للطريق" إذا ذهب به إلى رأس الطريق، و"هداه الطريق" إذا أدخله فيه وسار معه حتى بلغا المقصد.

ثـم إن فعـل الهداية متى عدّي بـ"إلـى" تضمن الإيصال إلى الغايـة المطلوبة فأتي بحرف الغاية، ومتى عُدِّي بـ"اللام" تضمن التخصيص بالشـيء المطلوب، فأتي باللام الداخلة على الاختصاص والتعين، وإذا تعدى بنفسه تضمن المعنى الجامع لذلك كله وهـو التعريف والبيان والإلهام، قيل: خص ما كان دلالـة بفعلت نحو: هديته الطريق، وما كان إعطاءً بأهديت، نحو: أهديته الطريق.

وأما قوله تعالـى: ﴿ ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ﴾ [الصافات:٢٢، ٢٣] فعلى طريقة التهكم كقوله: ﴿ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [آل عمران: ٢١].

والهدى اسم يقع على الإيمان والشرائع كلها، فيُطلق على:

الدين كله، قال تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ٧٣] أي الدين.

والإيمان كقوله تعالى: ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ﴾ [مريم: ٧٦] أي إيمانًا.

والدعاء نحو: ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ [الأنبياء: ٧٣] أي يدعون.

والدعاة إلى الله: ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ [الرعد: ٧] أي داع.

وعلى الرسل والكتب، نحو: ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى ﴾ [البقرة: ٣٨] ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [النجم: ٢٣] ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [غافر: ٥٣].

والمعرفة نحو: ﴿ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [النجم: ١٦].

والاسترجاع نحو: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٧].

والتوحيد نحو: ﴿ وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ﴾ [القصص: ٥٧] ونحو: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴾ [سبأ: ٣٢].

والسنة نحو: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠].

والإصلاح نحو: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ [يوسف: ٥٢].

والإلهام نحو: ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه: ٥٠] أي ألهمهم المعاش.

والتوبة نحو: ﴿ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

والإرشاد نحو: ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [القصص: ٢٢].

والحجة نحو: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص: ٥٠] أي لا يهديهم حجة؛ بدليل ما قبله"[١].

---

(١) الكليات لأبي البقاء ١٥٢٧-١٥٣١.

المبحث الرابع
مراتب الهداية وأقسامها

مسألة الهدى والضلال مسألة عظيمة، ولا بد من بيان مراتب الهداية وأقسامها حتى يتبين كمال نعمة الله ومنَّته علينا بالهداية.

"**مراتب الهداية أربعة:**

المرتبة الأولى: الهداية العامة لكل مخلوق إلى ما يصلحه:

هداية الله العامة لكل مخلوق إلى مصالح معاشه وما يقيمه، هذه الهداية العامة عامة لكل مخلوق للآدميين والطيور والوحوش والصغار والكبار والأطفال، فيدخل في ذلك: هداية الطيور إلى أوكارها، وهداية الأنعام إلى مراتعها، وهداية الطفل إلى ثدي أمه، وهداية الإنسان إلى ما يصلحه في معاشه وما يقيم به أمور حياته، هداه الله كيف يأكل، كيف يشرب، كيف ينكح، والحيوانات هداها الله تعرف كيف تأكل وكيف تشرب وكيف تنكح أنثاها، وهي عامة شاملة للآدميين وللحيوانات وللوحوش وللطيور، قال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ١ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ٢ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ٣ وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ﴾ [الأعلى: ١-٤] هذه دليل الهداية العامة، وقال سبحانه في جواب موسى لفرعون: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] كل المخلوقات هداها الله إلى ما يصلحها في معاشها؛ فالإبل والبقر والغنم هداها الله كيف تأكل، وكيف تذهب إلى الماء وتشرب، كيف تذهب إلى المراعي. والطفل من حين سقوطه من بطن أمه هداه الله إلى أن يلتقم ثدي أمه، هذه هي الهداية العامة، والطيور هداها الله

إلـى أوكارها وجلب غذائهـا لصغارها ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ هذه عامة للآدميين ولغيرهم.

المرتبـة الثانيـة: هدايـة البيـان والدلالـة والإرشـاد والدعـوة والتعليـم والإبلاغ:

وهذه خاصـة بالمكلفين من الجن والأنس، هداية تسـمى هدايـة البيان والدلالة والإرشـاد والتعليم والدعوة إلى ما يصلح الإنسان في معاده يوم القيامة، وإلى ما يكون سـببًا في نجاتـه من النار، وقيامه بمـا أوجب الله عليه، وهذه المرتبـة هي حجة الله على خلقـه، لا يعـذب الله أحدًا حتـى تقوم عليـه الحجة وحتـى يُهدى هـذه الهداية، وهي التي أرسـل من أجلها الرسـل وأنزل من أجلها الكتب، قال سبحانه: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾ [النسـاء: ١٦٥]، وقـال سـبحانه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبـة: ١١٥] يعنـي مـا كان الله ليضلهم بعد أن هداهم وبيّن لهـم طريق الخير، فلما بيّن لهم طريق الخير وتركوه أضلهم عقوبة لهم.

وقال سـبحانه: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧] هديناهم يعنـي دللناهم طريق الخير وطريق الشـر، فلمـا بيّن الله لهم طريق الخير وطريق الشـر واسـتحبوا العمـى علـى الهدى جاءتهـم العقوبـة ﴿فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧].

وهـذه هي هدايـة ثابتة للرسـل والأنبيـاء والمصلحيـن والدعاة، كلهـم يقدرون عليهـا قـال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ للنبـي ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الشـورى:٥٢] أي تُرشـد وتدل وتبلغ وتدعو، هذه هداية يقدر عليها الرسـول ﷺ ويقدر عليها الدعاة

والمصلحون، يهدون الناس هداية الدلالة والإرشاد والبيان والتبليغ والدعوة، فهذه الهداية خاصة بالمكلفين من الإنس والجن وليست للحيوانات ولا الطيور، فهي هداية بيان وإرشاد للناس إلى الأمر الذي خلقوا له بيان ما أوجب الله عليهم من توحيده وطاعته وترك معصيته.

الله تعالى لا يعذب أحدًا حتى تقوم عليه الحجة، وحتى يتبين له ما أوجب الله عليه، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ [التوبة: ١١٥] وقال سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥]، فبعث اللهُ الرسولَ وأرشدَ الناس ودلَّهم على ما أوجب الله عليهم من التوحيد والطاعة واجتناب المعصية، وبه قامت الحجة عليهم، فإن خالفوا بعد ذلك استحقوا العذاب؛ إذا لم يعملوا، فهذه هداية البيان والدلالة والإرشاد.

المرتبة الثالثة: هداية التوفيق والإلهام والتسديد:

جعل الإنسان يقبل الحق ويرضاه ويختاره وخلق هداية القلب هذه خاصة بالله، لا يقدر عليها إلا الله، لا يقدر عليها أحد من الخلق لا الأنبياء ولا غيرهم، وهذه هي المنفية عن النبي ﷺ نفاها الله بقوله: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص ٥٦] فهو لا يهدي، يعني: لا يخلق الهداية في القلب، ولا يوفق ولا يلهم ولا يجعله يقبل الحق ويختاره ويرضاه إلا الله، ولو كانت هداية الدلالة والإرشاد لكان النبي ﷺ أرشد من أحب ومن أبغض.

وقال سبحانه: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام: ٣٩]

فالله تعالى يهدي ويضل، فالهداية والإضلال، بيد الله ﷻ والعبد هو الضال والمهتدي، ولا بد في وقوع هذه الهداية من أمرين: **الأمر الأول:** الهداية من الله، يعني يهديه الله

والثـاني: الاهتداء من العبد فإذا هـداه الله واهتدى حصلت له الهداية بالتوفيق، وكذلك الإضلال من الله، والعبد هو الضال، إذا أضله الله فضلّ صار ضالًّا.

فالهدايـة والإضـلال بيـد الله ﷻ وقد اتفقت رسـل الله وكتبه المنزلـة على أن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وأنه من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له.

وهذه المسألة مسألة الهداية والإضلال مسألة عظيمة؛ لأن أفضل ما يقدره الله على العبد وأجل ما يقسـمه له هو الهداية، وأعظم ما يبتلي الله به العبد وأعظم مصيبة تصيبه هو أن يقدر الله عليه الإضلال، وكل نعمة فهي دون نعمة الهداية، وكل مصيبة هي دون مصيبـة الإضـلال، فلذلك كانـت الهداية والإضلال بيـد الله ﷻ؛ لأن الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ قال: ﴿ وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴾ [السجدة: ١٣] لو كانت الهداية بيد العبد لما قيدها بالمشيئة ﴿ وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا ﴾ ولكـن الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ خـص المؤمـن بنعمة دينيـة دون الكافر، كما قال سـبحانه: ﴿ وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ﴾ [الصافات: ٥٧] وقال سبحانه: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ [الحجرات: ٧، ٨].

هـذه النعمة اختص الله بها المؤمنين، اختصهـم بنعمة دينية، جعلهم يقبلون الحق ويرضـون به ويختارونه وألهمهـم إياه، وخلق الهداية في قلوبهـم فصاروا مهتدين. وله الفضل والإحسـان، والكافر أضله الله وخذله وأضله الله وابتلاه -كل ذلك- عدلا منه حكمة بالغة سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

فالهدايـة والإضـلال بيـد الله ﷻ، فالمؤمن اختصـه الله بهذه النعمـة الدينية دون الكافر، والكافر خذله الله.

المرتبة الرابعة: الهداية إلى طريق الجنة والنار يوم القيامة:

الكفـار يهديهم الله إلى النار، والمؤمنـون يهديهم الله إلى الجنة، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ **في الكفار:** ﴿ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣].

وقال سـبحانه في المؤمنيـن: ﴿ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ [محمـد: ٤-٦] فهـذه هدايةٌ بعد قتلهم؛ يهديهم إلى طريق الجنة، ويُصلح بالهم في كبت خصومهم، وقبول أعمالهم، فهذه مراتب الهداية.

وأهل السـنة يقسـمون الهداية إلى قسـمين: هداية دلالة وإرشـاد، وهداية توفيق وإلهام."أ.هـ[١].

(١) ملخصًا من شرح الطحاوية للشيخ عبدالعزيز الراجحي، أشرطة الدورة العلمية بجامع شيخ الإسلام ابن تيمية بالرياض. وبنحو هذا كلام ابن القيم في بدائع الفوائد ٢/ ٢٧٢-٢٧٣.

المبحث الخامس
أسباب تحصيل الهداية

من أسباب تحصيل الهداية:

١- الهداية تطلب من الله -جل وعلا-: قال تعالى في الحديث القدسي: «فاستهدوني أَهْدِكُمْ»[١] يعني اطلبوا مني الهداية أهدكم إليها. وهذا يدل على رغبة ابن آدم في الهداية إن طلبها من الله -جل وعلا-، فلا بد من ابن آدم أن يسعى في أسباب الهداية.

٢- بيَّن الله أسباب الهداية في بعض الآيات؛ ليعرف العباد الأسباب والطرق المفضية إليها، فيسلكوا النافع ويدَعوا الضار، كقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥-١٠] فبيَّن أن أسباب الهداية والتيسير إيمان العبد بحكمة ربه في سننه وخلقه وشرعه، وأخذه بهذه السنن وانقياده لأمره الشرعي، وأن أسباب الضلال والتعسير ضد ذلك"[٢].

"يسر لهم أسباب الهداية غاية التيسير، ونبههم على سلوك طرقها، وبينها لهم أتم تبيين، حتى إن من جملة ذلك أنه يقيض للحق المعاندين له فيجادلون فيه، فيتضح بذلك الحق، وتظهر آياته وأعلامه، ويتضح بطلان الباطل، وأنه لا حقيقة له، ولولا قيامه في مقابلة الحق لربما لم يتبين حاله لأكثر الخلق، وبضدها تتبين الأشياء، فلولا الليل ما عرف فضل النهار، ولولا القبيح ما عرف فضل الحسن، ولولا الظلمة ما عرف منفعة النور، ولولا الباطل ما اتضح الحق اتضاحًا ظاهرا، فلله الحمد على ذلك".[٣]

---

(١) صحيح مسلم كتاب البر والصلة والأدب باب تحريم الظلم (٢٥٧٧).

(٢) القواعد الحسان ص٥٠.

(٣) تيسير الكريم الرحمن للسعدي ص٧٣.

٣- الإنابة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣] هذا السبب الذي من العبد، يتوصل به إلى هداية الله تعالى، وهو إنابته لربه، وانجذاب دواعي قلبه إليه، وكونه قاصدًا وجهه، فحسن مقصد العبد مع اجتهاده في طلب الهداية، من أسباب التيسير لها، كما قال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة: ١٦]"[١]. وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [مُحَمَّد: ١٧].

٤- فالإكثار من الصلاة عليه ﷺ من أسباب الهداية إلى صراط مستقيم.

٥- من أسباب الهداية العلم النافع؛ لأن العلم النافع من أسباب الهداية، ومن حرم العلم حرم خيرا كثيرا، ومن رزق العلم النافع فقد رزق أسباب السعادة إذا عمل بذلك واتقى الله في ذلك.

٦- ومن أقوى أسباب الهداية صحبة الصالحين، فإن صحبتهم تغري بِمُشاكَلَتِهِم، والصاحب ساحب والطباع سارقة، وهؤلاء يذكرونك بالخيرات ويعينوك عليها، ففتش عنهم وانخرط في سلكهم، فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد، فاصحب الصالح المستقيم لتتعلم منهم أمور دينك كصفة صلاة وطريقة قراءة القرآن ونحو ذلك.

٧- وكثرة قراءة واستماع القرآن الكريم؛ فإن القرآن شفاء لجميع أمراض القلوب، واستماعه بتدبر وحضور قلب من أقوى أسباب الهداية والاستقامة، قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥] "وهذا القرآن هو كتابٌ عظيمُ الشَّأن، مباركٌ، أنزله الله تعالى على نبيِّه محمَّدٍ ﷺ فاتَّبعوه أيها النَّاس وتدبروه، واعملوا بما فيه، وادعوا إليه، ووصفه تعالى بالبركة لمن اتَّبعه وعمل به في الدنيا والآخرة؛ لأنه جمع أسباب الهداية الدَّائمة"[٢].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن للسعدي ص٧٥٤.

(٢) أيسر التفاسير، أسعد حومد ١/ ٣٦٧.

٨- ومن أعظم أسـباب الهداية الدعاء والالتجاء إليه، وهو مسبب الأسباب، وهو قريب من عبـاده ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ١٨٦]، فاسـأل الله بذُلٍّ وإلحاحٍ: أن يرزقك الاستقامة والهداية.

٩- ومن أسباب الهداية: الرضا عن أفعال الله -جل وعلا-، يرضى لكونه يعلم أن هذا فيه خير له وأنه أصلح، وأن الله -جل وعلا- لا يقدِّر على العبد إلا ما هو أصلح له ونحو ذلك، فهنا يرضى بالمصيبة وهذا من الأمور المستحبة لذوي المقامات العالية، كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ [التغابن: ١١]، فهذا من تمام الإيمان وهو سبب من أسباب الهداية.

١٠- وكذلـك من أسـباب الهداية الإقلاع عـن المعصية نهائيًا، نعـم فيه صعوبة ولكن ليس مستحيلًا، بل إنه يسير على من يسره الله عليه، وإنما يحتاج إلى إرادةٍ جازمة واستحضارٍ لعظمة الله ومراقبته وأنه سبحانه لا يغفل عنك.

١١- من أعظم أسباب الهداية: الإحسان والمعاملة باللطف والصبر على الأذى.

١٢- ومـن أسـباب الهداية: البحث عنهـا وتلمس مواطنها، فكما أن للشـفاء من المرض أسبابًا، فكذلك للهداية أسباب، فالمريض إذا مرض يذهب إلى الطبيب ويبذل السـبب من أجل طلب الشـفاء والعافية، وكذا الأمر بالنسـبة للهداية، وهي مبذولة ولا يمنع منها إلا هذه الأسباب التي تعمى على القلوب وإن كانت لا تعمى الأبصار.

المبحث السادس
واجب المسلم في نشر الهداية

"كثيـرًا ما يعتذر المخلّ بواجب الدعوة إلى الأمـر بالمعروف والنهي عن المنكر بقولـه تعالـى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [الْقَصَصِ: ٥٦]، ويتشـبث بظاهرها ليرفع اللوم عنه بسـبب تكاسله، بحجة أن الهداية بيد الله، وقـد نفاهـا الله عن حبيبـه ﷺ، وكذلك يعتذر بهذه الآية المنهمكون في الشـهوات والمعاصي بحجة أن الله لم يهده، والجواب عن ذلك في شقين:

إِنْ الله -جَلَّ وَعَلا- قد أرسـل رسـله وأنبياءه ليهـدوا الناس إلى طريقٍ مسـتقيمٍ -طريـق الهداية- وهو ما يسـمى بهداية الإرشـاد، ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [النسـاء: ١٦٥]، فمن واجب الأنبياء والرسـل والدعاة أن يقوموا ما باسـتطاعتهم، ويؤدوا واجبهم في التبليغ، وتبيين شرع الله، وليس بمقدورهم ولا من واجبهم أن يجعلوا كلّ الناس مهتدين، فهذا بيد الله وحده.

إِنْ هداية الله -جَلَّ وَعَلا- لبعض عباده دون آخرين بما يسمى (الهداية التوفيقية) تسبقها مقدماتٌ مسـتندة إلى الهدايات الأخرى، وهذه المقدمات صلاحياتٌ اكتسبها أصحابها بالهداية الأولـى العامة، وأتبعها أعمالاً صالحةً، بمعنى: أن المعنيين بالهداية الخاصة أصبحوا أهلاً لنزول تلك الرحمة، إمّا بإنابتهم إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ [مُحَمَّـد: ٧]، أو بجهادهم في سـبيل الله ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العَنْكَبُـوتِ: ٦٩]، أو بأعمالهـم الصالحـة

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [يُونُس: ٩]، فـإن الله لا يهدي القوم الكافرين، ولا الظالمين، قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [البَقَرَة: ٢٦٤]، وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨]. فالظلم والفسوق حُجُبٌ تمنع نفوذ الهداية الإلهية (التوفيقية)"ا.هـ[١].

(١) سورة القصص دراسة تحليلية تأليف د. محمد مطني، بتصرف.

الفصل الثالث
تقوى الله وامتحان القلوب

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: تقوى الله:

المطلب الأول: مفهوم التقوى ومظاهرها.

المطلب الثاني: صفات المتقين.

المطلب الثالث: الوسائل المعينة على التقوى.

المطلب الرابع: ثمرات تقوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

المبحث الثاني: امتحان القلوب:

المطلب الأول: أقسام وأحوال القلوب.

المطلب الثالث: مواطن امتحان القلوب.

المطلب الرابع: أمراض القلوب.

المطلب الخامس: أسباب مرض القلب ومظاهره.

المطلب السادس: علاج أمراض القلوب.

تمهيد

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴾.

يخبر الله تعالى عن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله تأدبًا معه، أولئك الذين اختبر واختار الله قلوبهم وأخلصها لتقواه، فلهم من الله مغفرة لذنوبهم وثواب جزيل، وهو الجنة.

من أبرز القضايا التي عالجتها هذه السورة الحديث عن التقوى وامتحان القلوب، وقد ظهر هذا في تكرار كلٍ من لفظ التقوى ولفظ القلوب –إما تصريحا أو بدلالة اللفظ– عدة مرات.

والحديث عن التقوى والقلب جميعًا أمرٌ مترابط؛ حيث إنّ التقوى محلها القلب، والله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في هذه السورة ربط بين القلب والتقوى، فقال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰ ﴾.

والتقوى هبة عظيمة يختار الله لها القلوب بعد امتحان واختبار، وبعد تخليص وتمحيص، فلا يضعها في قلب إلا وقد هيأه لها، وقد أثبت أنه يستحقها، والذين يغضون أصواتهم عند رسول الله قد امتحنهم الله تعالى وهيأ قلوبهم للتقوى فنالوا المغفرة والأجر العظيم من الله تعالى.

وسنعرض للحديث عن كل من التقوى والقلب؛ لعلنا أن نوضح المراد من تنبيه الله عليهما في هذه السورة وغيرها.



المبحث الأول
تقوى الله

لقد ورد ذكر التقوى في هذه السورة عدة مرات، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾ وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ وأخيرا قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾. وهذا يدل على أهميتها؛ فإن تقوى الله عز وجل هي الأساس الذي يدعونا للقيام بكل الآداب التي أشارت إليها السورة.

ولأهمية الموضوع نتطرق للتقوى من خلال أربعة مطالب:

المطلب الأول
مفهوم التقوى ومظاهرها

أولاً: مفهوم التقوى:

التقوى لغة: الصيانة والحذر والحماية والحفظ[١].

واصطلاحًا: لقد ورد في معنى التقوى للعلماء أقوال كثيرة ومن أشهرها:

التقوى: "أن تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية، بامتثال الأوامر واجتناب النواهي"[٢].

---

(١) لسان العرب ١٥/ ٤٠١.

(٢) المحرر الوجيز ١/ ١٤٤.

فالتقـوى: "أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله"[١].

والتقوى: «**أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[٢].

وكل هـذه الأقوال في معنى واحد وهو طاعة الله واجتناب معصية الله على نور من الله مع مراقبة الله.

ثانيًا: مظاهر التقوى:

قال ابن مسـعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "أجمع آية في كتاب الله للخير والشـر قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]"[٣]. فالآية جمعت خصال التقوى.

فتقوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ **تكون في كل شيء، قال تعالى**: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢] وللإيضاح والتمثيل نعرض بعض الأمور التي أمرنا بالتقوى فيها صراحة، فمنها:

- **التقـوى في العبادات**: قال تعالـى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].
- **التقـوى في المعاملات**: قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨].
- **والتقـوى في الأخلاق**: قال تعالـى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ

---

(١) جامع العلوم والحكم ص١٤٩.

(٢) جامع العلوم والحكم ص١٤٩.

(٣) الدر المنثور ٩/ ١٠٣. وحسنه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٣٧٦).

ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ﴾.

◆ **التقوى في العلاقات الاجتماعية**: قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ ﴾ [الطلاق: ١].

◆ **التقوى في السفر**: لقد أمرنا رسول الله ﷺ بدعاء السفر والذي فيه: «**اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى**»[1].

ومن هذه النماذج من الأمر بالتقوى يتبين لنا أن التقوى شاملة لكل نواحي الحياة الدينية والدنيوية وهذا مما يعطي تلك الصفة أهمية عظمى في حياة الناس.

المطلب الثاني

صفات المتقين

للمتقين صفات كثيرة تستنبط من كتاب الله عز وجل وسنة رسول الله ﷺ ومنها:

١- **الأدب مع الله** سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ **ومع رسوله ﷺ، قال تعالى**: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ ﴾، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ ﴾.

٢- **الإصلاح بين الإخوان: قال تعالى**: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾.

(١) صحيح مسلم كتاب الحج باب ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج وغيره (١٣٤٢).

٣- كف الأذى عن المؤمنين وعدم تتبع العورات قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾.

هذه الصفات الثلاث مستنبطة من سورة الحجرات، وهناك صفات أخرى مكررة في كتاب الله، ومنها: المذكورة في قول الله تعالى: ﴿ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٨-٧٠] وهي:

١- الإنفاق في سبيل الله.

٢- كظم الغيظ.

٣- العفو عن الناس.

٤- التوبة والاستغفار وعدم الإصرار على الذنب.

ومنها: المذكورة في قول الله تعالى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧]. وهي:

١- القيام بأركان الإسلام وأركان الإيمان.

٢- الصبر في البأساء والضراء.

٣- الوفاء بالعهد.

٤- الصدق في القول والعمل.

فهذه إحدى عشرة صفة من أهم صفات المؤمنين التي يجب على المسلم أن يلتزم بها، لعله يكون من أهل التقوى. وبمقدار ما يلتزم المؤمن بصفات المتقين تزيد درجة التقوى عنده وترتفع درجاته عند الله تعالى، بشرطين لا مناص منهما: الإخلاص وحسن المتابعة لهدي المصطفى ﷺ.

المطلب الثالث

الوسائل المعينة على التقوى

هناك وسائل كثيرة معينة على تقوى الله سبحانه مستنبطة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ومنها:

١- **العلم**؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]..

٢- **صحبة الأخيار**؛ قال ﷺ: «**مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك؛ إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع وإما أن تجد منه ريحًا طيبة منه، ونافخ الكير؛ إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحا خبيثة**»[(١)].

(١) صحيح البخاري كتاب البيوع باب العطار وبيع المسك. ومسلم ٤/ ٢٠٢٦ كتاب البر والصلة باب استحباب مجالسة الصالحين ومجانبة قرناء السوء (٢٦٢٨).

وورد عنه ﷺ أنه قال: «**لا تصاحب إلا مؤمنًا، ولا يأكل طعامك إلا تقي**»[(١)].

٣- قراءة القرآن والاستماع له بتدبر؛ قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء: ٨٢]. وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٤].

٤- دعاء الله والتوكل عليه؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢].

٥- تحري الطيبات من الرزق؛ قال ﷺ: «**إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا**»[(٢)].

٦- البعد عن المعاصي: عن مجاهد قال: "كُتب إلى عمر: يا أمير المؤمنين، رجل لا يشتهي المعصية ولا يعمل بها أفضل؟ أم رجل يشتهي المعصية ولا يعمل بها؟ فكتب عمر: إن الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾"[(٣)].

٧- مراقبة الله دائمًا؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١] فهذه من أهم الوسائل التي تعين العبد على تقوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

---

(١) سنن الترمذي كتاب الزهد باب ما جاء في صحبة المؤمن (٢٣٩٥)، وقال حديث حسن صحيح، وحسنه الألباني كما في صحيح سنن الترمذي (١٩٥٢).

(٢) صحيح مسلم كتاب الزكاة باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها (١٠١٥).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في الزهد، كما في تفسير القرآن العظيم - ابن كثير ٧/ ٣٦٨، وانظر: الدر المنثور ١٣/ ٥٣٨، وذكره ابن رجب في جامع العلوم والحكم ص٩٠.

المطلب الرابع

ثمرات تقوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ

للتقوى ثمرات كثيرة، منها:

١- **محبة الله**؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤].

٢- **الفقه والفهم الصحيح**؛ قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

٣- **التوفيق، وتكفير السيئات، والمغفرة، وتعظيم الأجر**؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩]. وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ [الطلاق: ٥].

٤- **معية الله**؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

٥- **الانتفاع بالقرآن**؛ قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

٦- **البركة في الرزق، والنجاة من العذاب**؛ قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

٧- **نفع الخلق والصحبة يوم القيامة**؛ قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

٨- **النجاة من النار**؛ قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧١، ٧٢].

٩- **النجاة من إغواء الشيطان**؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

١٠- **الأمن من الخوفِ والحزنِ في الدنيا والآخرة**؛ قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٣٥].

١١- **قبول العمل**؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

١٢- **تيسير الأمور والرزق**؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾ [الطلاق: ٤]. ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

١٣- **النصرة والتمكين**؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥].

١٤- **النجاة من كيد الأعداء**؛ ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

١٥- **الفوز بالجنة**؛ قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

١٦- **عدم الخوف وعدم الحزن**؛ قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩].

وغيرها من الآثار التي وهبها الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لعباده المتقين، اللهم إنا نسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى.

المبحث الثاني
امتحان القلوب

الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ يمتحـن قلـوب عباده، قال تعالـى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ [آل عمران: ١٥٤] وهذا الامتحان ليتبين المؤمـن من المنافق، ولكي يميز الله الخبيث من الطيب.

ومعنـى قـول الله تعالـى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ أي: "أي جعلها خالصة لأجل التقـوى، أو أخلصها لها، فلـم يبق لغير التقوى فيها حـق، كأن القلوب خلصت ملكًا للتقوى"[١].

فالتقـوى هبة عظيمـة، يختار الله لها القلوب بعد امتحـان واختبار، وبعد تخليص وتمحيص، فلا يضعها في قلب إلا وقد تهيأ لها، وقد ثبت أنه يستحقها.

"والتقـوى لا تظهـر إلا عند المحن والشـدائد بالتكليف، ولا تثبـت إلا بملازمة الطاعة في المنشط والمكره والخروج عن مثل ذلك"[٢].

"فمن المعلوم أن أشـرف ما في الإنسـان قلبه، فإنه العالـم بالله، العامل له، الساعي إليه، وإنما الجوارح أتباعٌ وخدام له، يستخدمها القلب استخدام الملوك للعبيد"[٣].

والقلب الطيب يشـبه في القرآن الكريم وفي حديث رسـول الله ﷺ بالأرض الطيبة

---

(١) روح المعاني ٩/ ١٣٧.

(٢) نظم الدرر ٧/ ٢٢٤. بتصرف يسير.

(٣) مختصر منهاج القاصدين ص١٤٨.

وبالتربة الطيبة، والقلب الخبيث يشبه بالأرض الخبيثة وبالتربة الخبيثة، فكلاهما -القلب والتربة- منبت زرع، ومأتى ثمر، القلب ينبت نوايا ومشاعر واتجاهات وعزائم، وأعمالًا بعد ذلك وآثارًا في واقع الحياة، والأرض تنبت زرعًا وثمرًا مختلفًا أكله وألوانه ومذاقاته وأنواعه، قال تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٨].

وحتى يتضح لنا معنى امتحان القلوب لنمعن النظر بما رواه حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «تعرض الفتن على القلوب عرض الحصير عودًا عودا، فأي قلب أشربها(١) نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها(٢) نكتت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين: على أبيض مثل الصفا، فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مربدا(٣)، كالكوز مجخيا(٤) لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرا، إلا ما أشرب من هواه»(٥).

وقد عبر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بلفظ «**تعرض**» ليدل على استمرار الاختبار والامتحان، وأن الفتن لا تأتي جملة واحدة بل تأتي على القلب شيئًا فشيئًا.

ولأهمية القلب، سنتحدث عن بعض مسائله الهامة، في ستة مطالب:

---

(١) أي: دخلت فيه ولزمته.

(٢) أي: ردها.

(٣) شديد السواد في بياض.

(٤) أي: كالكوب المقلوب لا يعلق به خير.

(٥) صحيح مسلم كتاب الإيمان باب بيان أن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا وأنه يأرز بين المسجدين (١٤٤).



المطلب الأول

أقسام وأحوال القلوب

يرى ابن القيم -عليه رحمة الله- أن أقسام القلوب ثلاثة:

١- "القلب السليم: وهو الذي لا ينجو يوم القيامة إلا من أتى الله به، قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٨٧ - ٨٩] أي السالم من كل شهوة تخالف أمر الله، ومن كل شبهة تعارض خبر الله.

٢- القلب الميت: وهو الذي لا حياة به فهو لا يعرف ربه، ولا يعبده بأمره.

٣- القلب المريض: هو قلب به حياة وبه علة.

فالأول مخبتٌ لينٌ واع، والثاني يابسٌ ميت، والثالث مريض. قال تعالى جامعًا هذه الأنواع الثلاثة: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الحج: ٥٢ - ٥٤]"(١).

ووضع الله الامتحان للقلوب ليعلم العبد أين هو من هذه القلوب الثلاثة.

فعلامة صحة القلوب تتمثل في الأمور التالية:

١- الإقبال على الآخرة كأنه من أهلها اليوم، قال ابن القيم رحمه الله: "كلما صح القلب من مرضه ترحل إلى الآخرة وقرب منها حتى يصير من أهلها، وكلما مرض

(١) إغاثة اللهفان ١/ ٧٠.

القلب واعتل آثر الدنيا واستوطنها حتى يصير من أهلها"[١].

٢- كثرة ذكر الله.

٣- الإنابة إلى الله والأنس به.

٤- إذا دخل في الصلاة ذهب عنه همه وغمه والدنيا، فقد كان رسول الله ﷺ يقول لبلال: «**أرحنا بالصلاة يا بلال**»[٢].

٥- أن يكون همه بتصحيح العمل أعظم منه بالعمل[٣].

٦- أن يكون أشح بوقته أن يذهب ضائعًا أشد من البخيل بماله.

٧- أن يجد لذة العبادة أكثر من لذة الطعام.

المطلب الثاني

مواطن امتحان القلوب

ومن المعلوم أن مرتكز الإيمان هو القلب، والذي يدل على ذلك الإيمان هي الجوارح، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ اختبر قلوب الناس هل هي على تقوى أم لا؟ بأمورٍ كثيرةٍ منها: عدم رفع الصوت عند رسول الله ﷺ، وحسن الأدب مع رسول الله ﷺ.

وإن مواطن امتحان القلب كثيرة للإنسان وليست مقتصرة على الشهوات والشبهات كما يظن كثير من الناس. وهي ما يطلق عليها العلماء (مداخل الشيطان

---

(١) إغاثة اللهفان ١/ ٤٨.

(٢) سنن أبي داود كتاب الأدب باب صلاة العتمة (٤٩٨٥). مسند أحمد (٥/ ٣٦٤)، وصححه الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في صحيح الجامع (٧٨٩٢).

(٣) راجع هذا المبحث بتوسع في إغاثة اللهفان ١/ ٧٢.

على القلوب) فيدخل الشيطان لقلب الإنسان بحسب حال الإنسان نفسه، فمن مواطن أو مداخل الشيطان على الإنسان:

١- العبادة:

ويُمْتَحـن العبد في العبادة بالإخلاص فيها لله رب العالمين، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴾ [البينة: ٥].

وقال رسول الله ﷺ: «إياكم وشرك السرائر، قالوا: يا رسول الله وما شرك السرائر؟ قال: يقوم الرجل فيصلي جاهدًا لما يرى من نظر الرجل إليه، فذلك شرك السرائر»[(١)].

وأيضا يختبر الإنسان في العبادة بالقيام بها كما أمر الله بها قال تعالى: ﴿ فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾ [هود: ١١٢].

وهنـا يدخل الشـيطان على العباد من هـذا الباب إما بإبعادهـم عن الإخلاص لله تعالى، أو بعدم حصول العمل بالكيفية التي أمر الله تعالى به إما بالإفراط أو التفريط.

٢- الامتحان بالعلم:

والامتحان فيه يكون بالعمل به والدعوة إليه والإخلاص فيه لله تعالى، قال تعالى: ﴿ وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

وقال ﷺ: **«من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضًا من الدنيا، لم يجد عرف الجنة يوم القيامة»[(٢)].**

---

(١) صحيح ابن خزيمة كتاب الصلاة باب التغليظ في المراءاة بتزيين الصلاة وتحسينها (٩٣٧)، وحسنه الألباني يرحمه الله في صحيح الترغيب ١/ ٨٩.

(٢) سنن ابن ماجة كتاب المقدمة باب الانتفاع بالعلم والعمل به (٢٥٢)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة (٢٥٢).

٣- الامتحان بالشهوات:

فيمتحن الله سبحانه قلوب عباده بالشهوات -كالمال والبنين والنساء والرياسة والمناصب والأهل والأقارب- قال تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴾ [التغابن: ١٥]. وقال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ﴾ [آل عمران: ١٤].

وقال ﷺ: «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء»[١] وهذا مدخل عظيم يدخل منه الشيطان لابن آدم ويجد له فيه أتباعًا كثيرين كما ذكر ذلك رسول الله ﷺ.

٤- الشبهات والفتن:

وهذا من الاختبارات الشديدة التي يمتحن فيها القلب، ويجد الشيطان فيها مرتعًا له، وطرقًا كثيرة يدخل بها على المرء في إبعاد قلبه عن الله تعالى، ومنها: إساءة الظن بالمسلمين، والتفكر في كيفية ذات الله وصفاته، والتشكيك في صحة نبوة النبي ﷺ، والسخرية من عباد الله، واحتقارهم، والتحريش بين المسلمين.. إلى غير ذلك. ولا يتحصن من هذا كله إلا الذين ملأ الله قلوبهم علمًا وخشية له سبحانه، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ﴾ [النحل: ١٠٠] وقال تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴾ [الحجر: ٤٢]، فالشيطان لا يستطيع أن يدخل إلى العلماء الراسخين والربانيين من هذا الباب، لأنهم محصنون من هذه الشبهات والفتن بالعلم الشرعي.

---

(١) صحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء، وبيان الفتنة بالنساء (٢٧٤٢).

المطلب الثالث

أمراض القلوب

أمـراض القلوب هي الأمـراض التي تصيـب القلب فتجعله بعيـدًا عن الحق ولا يسـتطيع أن يصل إليه، وقريبًا من المنهيات منغمسًـا فيها قـال تعالى: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ﴾ [البقرة: ١٠] وقال تعالى: ﴿ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٌ ﴾ [الأحزاب: ٣٢].

وهذه الأمراض كثيرة جدًّا ومنها:

١- مرض النفاق الأكبر:

قـال الله تعالـى عـن المنافقيـن: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ﴾ [البقـرة: ١٠]. وهـذا المرض من أخطر الأمراض؛ إذ هو يتعلق بجانب العقيدة تعلقًا قويًّا وهو مرض يفتك في الأمة الإسلامية ويهدم شعائر الإسلام الظاهرة، قال تعالـى: ﴿ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٦٧] ولذا فقد توعدهم الله بالدرك الأسـفل من النار فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ﴾ [النساء: ١٤٥].

٢- مرض الشهوة:

وهو: تعلق القلب بملذات الدنيا كالنسـاء والأولاد، وهذا كل الناس واقعون فيه، ولكن على تفاوت بحسـب قوة الإيمان وضعفه، فإذا كان الإيمان بالله قويًّا ضعف هذا المـرض، وإذا كان التعلق بالله ضعيفًـا زاد خطر هذا المرض. قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤].

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧]. وقال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

وقال ﷺ محذرًا من الدنيا والتعلق بملذاتها: «إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء»[1].

٣- الرياء:

وهذا مرض خطير جدًا؛ لأنه قد يخفى عن الإنسان نفسه وقد لا يحس الإنسان به، قال تعالى في وصف المنافقين: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

وقال ﷺ: «من سمَّع سمَّع الله به ومن يرائي يرائي الله به»[2] أي: "من رايا بعمله وسمعه الناس ليكرموه ويعظموه ويعتقدوا خيره سمَّع الله به يوم القيامة الناس وفضحه. وقيل: معناه: من سمع بعيوبه وأذاعها أظهر الله عيوبه. وقيل: أسمعه المكروه. وقيل: أراه الله ثواب ذلك من غير أن يعطيه إياه ليكون حسرة عليه. وقيل: معناه: من أراد بعمله الناس أسمعه الله الناس وكان ذلك حظه منه"[3].

---

(١) صحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء، وبيان الفتنة بالنساء (٢٧٤٢).

(٢) صحيح البخاري كتاب الرقاق باب الرياء والسمعة (٦٣٩٩). ومسلم كتاب الزهد والرقائق باب من أشرك في عمله غير الله (٢٩٨٦).

(٣) شرح النووي على مسلم ١٨/ ١١٦.

٤- مرض الشبهة والشك:

وهــذا المــرض خطير جدًّا فهو بوابة إلى الكفر بــالله تعالى، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمـران: ٧] وقـال تعالـى: ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡبَشَرِ﴾ [المدثـر: ٣١]، وقـال تعالى: ﴿لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾ [الحج: ٥٣].

وقـال تعالى في حـق المنافقيـن: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠] "والمراد بالمرض هنا: مرض الشك والشبهات والنفاق، وذلـك أن القلب يعرض لـه مرضان يخرجانه عـن صحته واعتداله، مرض الشـبهات الباطلة، ومرض الشهوات الـمُردية، فالكفر والنفاق والشكوك والبدع كلها من مرض الشبهات، والزنا ومحبة الفواحش والمعاصي وفعلها من مرض الشهوات"(١).

٥- سوء الظن بالله واليأس من رحمة الله:

وهـذا المـرض خطيـر ويتعلق بمسـألة القضاء والقـدر؛ لأن الـذي ضعف عنده الإيمان بالقضاء والقدر يكون في خوف من كل شـيء، ولا يثق في أي شـيء ولا يعتمد ولا يتوكل على الله في شيء، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا﴾ [الأحزاب: ١٢]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ﴾ [الحجـرات: ١٢] وقـال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٤٢.

وقد أمر النبي ﷺ بحسن الظن بالله فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: سمعت النبي ﷺ قبل وفاته بثلاث يقول: «**لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن بالله الظن**»[١].

ويقول النبي ﷺ في الحديث القدسي: يقول الله تعالى: «**أنا عند ظن عبدي بي**»[٢].

وقد وصى نبي الله يعقوب عليه السلام أولاده بعدم اليأس في البحث عن يوسف وأخيه، ونبههم على أن اليأس لا يكون إلا من القوم الكافرين؛ فقال تعالى حكاية عن يعقوب عليه السلام: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، فكان جزاء يعقوب عليه السلام -بسبب حسن ظنه بالله وعدم يأسه- أن رد الله إليه ولديه.

٦- الحسد:

وهو مرض لا ينجو منه إلا القليل من الناس؛ لأن الإنسان جبل على التطلع إلى ما عند غيره، ولذلك فنحن مأمورون بالاستعاذة -صباحًا ومساء- من الحسد، قال تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ٥]، وقال ﷺ: «**لا تباغضوا، ولا تحاسدوا..**» **الحديث**[٣]، فإن الحسد يدل على عدم الرضا بما أعطاه الله للإنسان ولذلك يتمنى زوال نعمة الله عن الناس.

٧- الكبر والإعجاب بالنفس واحتقار الآخرين والاستهزاء بهم:

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن

---

(١) صحيح مسلم كتاب الجنة باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عمد الموت (٢٨٧٧).

(٢) صحيح البخاري كتاب التوحيد باب قوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾ (٧٤٠٥)، ومسلم كتاب الذكر والدعاء باب الحث على ذكر الله (٢٦٧٥).

(٣) صحيح البخاري كتاب الأدب باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر (٦٠٦٥)، ومسلم كتاب البر والصلة والآداب باب التحاسد والتدابر والتباغض (٢٥٥٩).

﴿نِسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢] "قال الكلبي ومقاتل: كان الناس يعملون أعمالًا حسنة ثم يقولون: صلاتنا وصيامنا وحجنا وجهادنا، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ أي: بر وأطاع وأخلص العمل لله تعالى"[(١)].

"فالتزكية التي يذم عليها أن يدل بعمله على ربه ويمدح وكأنه يمن على الله، يقول: صليت، وتصدقت، وصمت، وحججت، وجاهدت، وبررت والدي وما أشبه ذلك"[(٢)].

٨ـ الحقد والغل.

قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الأعراف: ٤٣]. أي: "وأذهبنا من صدور هؤلاء الذين وصف صفتهم، وأخبر أنهم أصحاب الجنة، ما فيها من حقد وغِمرٍ وعداوة كان من بعضهم في الدنيا على بعض، فجعلهم في الجنة إذا أدخلوها على سرر متقابلين، لا يحسد بعضهم بعضًا على شيء خص الله به بعضهم، وفضله من كرامته عليه"[(٣)].

---

(١) معالم التنزيل ٤/ ٣١٢.

(٢) تفسير جزء الذاريات لابن عثيمين ص٢٣٧.

(٣) جامع البيان ١٢/ ٤٣٧.

قـال تعالـى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠]. "ذكر الله في الدعـاء نفـي الغل عن القلب، الشـامل لقليل الغل وكثيره، الذيـن إذا انتفى ثبت ضـده، وهو المحبة بيـن المؤمنين، والموالاة، والنصح، ونحو ذلك مما هو من حقوق المؤمنين"(١).

فهذا الأمر أيضًا مما يفتك بقلب الإنسان ويخلخل صف المسلمين.

٩- اتباع الهوى:

قـال تعالى محذرا من اتباع الهـوى: ﴿ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص:٥٠]. وقـال تعالـى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ﴾ [ص: ٢٦].

وقال تعالى حاثا على مقاومة الهوى: ﴿ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ٤٠ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴾ [النازعـات: ٤٠، ٤١]. "وأصل الهوى: مطلق الميل، وشـاع في الميل إلى الشـهوة، وسـمي بذلك على ما قال الراغب: لأنه يهـوي بصاحبه في الدنيا إلى كل واهيـة، وفي الآخـرة إلى الهاوية، ولذلك مدح مخالفه. قـال بعض الحكماء: إذا أردت الصواب فانظر هواك فخالفه. وقال الفضيل: أفضل الأعمال مخالفة الهوى"(٢).

١٠- الخوف من غير الله:

قال تعالى: ﴿ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٣].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٨٥٢.

(٢) روح المعاني ٣/ ٣٦.

ويقول الله تعالى واصفًا الذين في قلوبهم مرض: ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴾ [المائدة: ٥٢]. فمن سمات مرضى القلوب مسارعتهم في أعداء الدين لإرضائهم، ونيل محبتهم.

١١- الوساوس:

وهي من خطوات الشيطان ومما عمت به البلوى عند كثير من الناس، وقلّما ينجو منها أحد، ولذا نحن نقرأ صباحًا ومساءً قوله تعالى: ﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴾ [الناس: ٤، ٥].

وقد أمر الله ﷻ بالاستعاذة من الشيطان فقال تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ [المؤمنون: ٩٧]، وقد حذرنا الله سبحانه من اتباع خطوات الشيطان فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [البقرة: ١٦٨].

وهذه الأمراض يتعلق بعضها ببعض، فقد يكون عند الإنسان هذه الأمراض كلها أو بعضها؛ لأن الذي يقع في أمراض القلوب تجده يتقلب بين مرض وآخر، وينتقل -من حيث لا يشعر- من مرض إلى أكبر منه، فنعوذ بالله من أمراض القلوب.

المطلب الرابع

أسباب مرض القلب ومظاهره

من المعلوم أن لكل مرض أسباب معروفة، ومرض القلب له أسباب عديدة يقع فيها الإنسان وهو يعلم أو لا يعلم، ومن أخطر هذه الأسباب:

١- الشك والجهل:

قال ﷺ: «هلا سألوا إذ لم يعلموا؛ فإنما شفاء العي السؤال»[١].

يقول شيخ الإسلام -عليه رحمة الله-: "والشاك في الشيء المرتاب فيه: يتألم قلبه حتى يحصل له العلم واليقين، ويقال للعالم الذي أجاب بما يبين الحق: قد شفاني بالجواب"[٢].

٢- كثرة المعاصي:

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿كَلَّاۖ بَلْۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

وقال رسول الله ﷺ: «إذا أذنب العبد نكت في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب صقل منها، فإن عاد عادت حتى تعظم في قلبه، فذلك الران الذي قال الله: ﴿كَلَّاۖ بَلْۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]»[٣] "وفي هذه الآيات التحذير من الذنوب، فإنها ترين على

---

(١) سنن أبي داود كتاب الطهارة باب إذا خاف الجنب البرد أيتيمم؟ (٣٣٦). سنن البيهقي كتاب الطهارة باب إذا كان الجرح في بعض جسد دون بعض (١/ ٢٢٧ح١٠١٦). وحسنه الشيخ الألباني في صحيح سنن أبي داود (٣٢٥).

(٢) فتاوى شيخ الإسلام (١٠/ ٩٤).

(٣) السنن الكبرى للنسائي ٩/ ١٦٠ (١٠١٧٦)، وصحيح ابن حبان ٣/ ٢١٠ (٩٣٠). وحسنه الألباني.

القلب وتغطيه شيئًا فشيئًا، حتى ينطمس نوره، وتموت بصيرته، فتنقلب عليه الحقائق، فيرى الباطل حقًا، والحق باطلًا، وهذا من عقوبات الذنوب"(١).

وقال بعض السلف: "وإن للسيئة ظلمة في القلب، وسوادًا في الوجه، ووهنًا في البدن، ونقصانًا في الرزق، وبغضًا في قلوب الخلق"(٢).

فما جفت الدموع إلا لقسوة القلوب، وما قست القلوب إلا لكثرة الذنوب، فمن أخطر آثار الذنوب والمعاصي ما يتعلق بالقلوب مثل: قسوة القلوب، وعدم تأثرها بالمواعظ والآيات والأدلة والتخويف والتحذير والإنذار، فلا تسمع ولا تفقه ولا تقبل.

وقد ذكر الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن من عقوبات الذنوب الظلمة التي يجدها العاصي في قلبه، ووهن القلب، والصدى والران والطبع والقفل والختم على القلب(٣).

فالمعاصي تُذهب رضاه ويقينه وصدقه وإخلاصه وتوكله ومحبته، بل تذهب قوته وحياته وصحته وراحته وتجمع له بين ذهاب حقائق الإيمان وبين عقوبات آجلةٍ وعاجلة كما رأينا في هذه الآثار.

٣- الإقبال على الدنيا والانشغال بها وعدم تذكر الآخرة:

وهذا من أعظم الأسباب التي تقسي القلوب -والعياذ بالله تبارك وتعالى- فإذا اشتغل العبد بالأخذ والبيع واشتغل أيضًا بهذه الفتن الزائلة والمحن الحائلة، فسرعان ما يقسو قلبه؛ لأنه بعيد عن مَن يُذكِّره بالله -تبارك وتعالى- فلذلك ينبغي على الإنسان إذا أراد أن يوغل في هذه الدنيا أن يوغل برفق.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٩١٦.

(٢) فتاوى شيخ الإسلام (١٠ / ٩٨).

(٣) الجواب الكافي ص٥٢ مختصرا.

فلذا من أعظم الأسباب التي تستوجب قسوة القلب الركون إلى الدنيا، وتجدهم -أهل القسوة- غالبًا عندهم عناية بالدنيا، يضحون بكل شيء! يضحون بأوقات الصلوات!! ويضحون بالأعمال الصالحة، ولكن لا يضحون بلذات الدنيا.

فإن في الدنيا شعبًا ما مال القلب إلى واحدٍ منها إلا استهواه لما بعده، ثم إلى ما بعده، حتى يبتعد عن الله ﷻ وعندها تسقط مكانته عند الله، ولا يبالي الله به في أي وادٍ من أودية الدنيا هلك، والعياذ بالله، والعبد الذي نسي ربه، وأقبل على هذه الدنيا مُجِلًا لها، ومكرمًا، فعظَّم ما لا يستحق التعظيم، واستهان بمَن يستحق الإجلال والتعظيم والتكريم، تكون عاقبته -والعياذ بالله- من أسوأ العواقب[1].

٤- إطلاق البصر في المحرمات:

قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ [النور: ٣٠].

قال ابن القيم: "الشيطان يدخل مع النظرة وينفذ معها إلى القلب أسرع من نفوذ الهواء في المكان الخالي، فيمثل له صورة المنظور إليه ويزينها، ويجعلها صنمًا يعكف عليه القلب ثم يعده ويمنيه، ويوقد على القلب نار الشهوة، ويلقي عليها حطب المعاصي التي لم يكن يتوصل إليها بدون تلك الصورة"[2].

فالنظر للحرام من الأمور التي تؤثِّر في القلب تأثيرًا طويلًا.

٥- قلة ذكر الله:

قال تعالى في وصف المنافقين: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

---

(١) محمد المختار الشنقيطي: كيف ترق قلوبنا؟ ص٨ وما بعدها.

(٢) الجواب الكافي ص١٨٠.

وقـد بين الله تعالـى أن اطمئنان القلب يكون بذكر الله تعالـى، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨].

يقول تعالـى داعيًا لذكـره: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴾ [الحديد: ١٦].

ويدخل في هذه الأسباب ويقاس عليها أسباب أخرى كثيرة.

ولعل من أهم مظاهر مرض القلب:

١ - "أن يبتعد وينسـى ما خلق من أجله من معرفة الله ومحبته والشـوق إلى لقائه والإنابة إليه، وإيثار ذلك على كل شهوة.

٢- لا تؤلمه جراحات الذنوب ولا يوجعه جهله بالحق.

٣- لا يستمر على الصبر لضعف علمه وبصيرته وتقواه.

٤- الإقبال على الدنيا والغفلة عن الآخرة.

٥- الوحشة في صحبة الصالحين.

٦- قلة ذكر الله وكثرة ذكر الدنيا."[١].

(١) انظر هذا المبحث مفصلاً في كتاب إغاثة اللهفان ١/ ٧٠.

المطلب الخامس

علاج أمراض القلوب

أخبرنا رسول الله ﷺ: «أن ما خلق الله من داء إلا وخلق له دواء»[١]، وكذلك أمراض القلوب فإن لها أدوية في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

فمن تلك العلاجات التي وصانا بها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ووصانا بها رسوله ﷺ:

الإخلاص لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ **والمتابعة لرسول الله** ﷺ قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٣]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [آل عمران: ٣١].

ومنها: قراءة القرآن وتدبره، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ﴾ [فصلت: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، وثبت عن النبي ﷺ أنه كان يدعو ويقول: «اللهم اجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي»[٢].

ومنها الصدقة، قال تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

---

(١) سنن ابن ماجة كتاب الطب، باب: ما أنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء (٣٤٣٨)، سلسلة الأحاديث الصحيحة (٤٥٢و٥١٨).

(٢) صحيح ابن حبان كتاب الدعاء باب ذكر الأمر لمن أصابه حزن أن يسأل الله ذهابه عنه وإبداله إياه فرحًا ٣/ ٢٥٣ح(٩٧٢). المستدرك على الصحيحين ١/ ٦٩٠ح (١٨٧٧). وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم إن سلم من الإرسال. وقد ضعف إسناده الدارقطني في العلل ٥/ ٢٠١.

ومنها: **البعد عن الفواحش والمعاصي**، قال تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ ﴾ [النور: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ [الأحزاب: ٣٢، ٣٣].

ومنها: **كثرة العمل الصالح**، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [يونس: ٩]. قال أحد العلماء: "إن للحسنة نورًا في القلب، وقوة في البدن، وضياء في الوجه، وسعة في الرزق، ومحبة في قلوب الخلق"(١).

ومنها: **التزام أوامر الله ورسوله**، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

ومنها: **كثرة ذكر الله والتأثر بذكره**، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [الحديد: ١٦].

ومنها: **مراقبة الله تعالى وتقواه**، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١]. وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف: ٢٤].

---

(١) المرجع السابق.

ومنها: الدعاء، قال تعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران: ٨]، وكان رسول الله ﷺ يدعو فيقول: «**اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**»[١]. وكان يدعو أيضًا ويقول: «**اللهم اجعل في قلبي نورا**»[٢].

ومنها: تركُ الحسد، وإيثارُ الإخوان، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩]، قال العلماء: "لا يجدون في صدورهم حاجة: أي حسدًا وغيظًا مما أوتي المهاجرون، ثم قال بعضهم: من مال الفيء، وقيل: من الفضل والتقدم"[٣].

ومنها: سلامة الصدر للمسلمين، فمن دعاء المؤمنين: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠]، قال عليه الصلاة والسلام: «**إن الشيطان يئس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب ولكن في التحريش بينهم**[٤]»)[٥].

ومنها: غض البصر، قال تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [النور: ٣٠]. "جعل الله الزكاة بغض البصر وحفظ الفرج، ولهذا كان غض البصر يوجب ثلاث فوائد: حلاوة الإيمان ولذته، ونور

---

(١) صحيح سنن ابن ماجة كتاب الدعاء باب دعاء رسول الله ﷺ (٣٨٣٤).

(٢) صحيح البخاري كتاب الدعوات باب الدعاء إذا انتبه بالليل (٦٣١٧). ومسلم كتاب الصلاة باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه (٧٦٣).

(٣) مجموع الفتاوى - ابن تيمية ١٠/ ١١٨.

(٤) أي الإغراء بينهم بالخصومات والشحناء والحروب والفتن.

(٥) صحيح مسلم كتاب صفة القيامة والجنة والنار باب تحريش الشيطان وبعثه (٢٨١٢).



القلب وصحته وفراسته، وقوة القلب وثباته وشجاعته"[١].

ومنها المحاسبة، "فهلاك النفس من إهمال محاسبتها، ومن موافقتها واتباع هواها"[٢]. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا"[٣]. وهذه المحاسبة تكون قبل العمل وفي أثناء العمل وبعد العمل.

(١) إغاثة اللهفان ١/ ٤٨.

(٢) إغاثة اللهفان ١/ ٧٠.

(٣) سنن الترمذي كتاب صفة القيامة باب ٥٩ (٢٤٥٩)، وضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي (٢٤٥٩).




الفصل الرابع
التثبت من الأخبار

ويتضمن خمسة مباحث:

المبحث الأول: التثبت: معناه، والحكمة منه.

المبحث الثاني: آفات الأخبار.

المبحث الثالث: أصناف الناس في تلقي الأخبار ومن تقبل روايته منهم.

المبحث الرابع: ما ينبغي على المسلم عند سماع الإشاعات والأخبار.

المبحث الخامس: الأخبار التي يجب التثبت منها وعدم نشرها.




تمهيد

قال تعالـى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَـٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴾.

يخـبر الله تعالى في هذه الآيات من الأمور المهمـة التي تعتبر من أخلاقيات لا إله إلا الله، والتي لا يكتمل إيمان العبد إلا إذا قام بها حق قيام.

فكمـا نبـه الله تعالى على أمر العلاقـة بينه وبين خلقه، والعلاقة بين الرسـول ﷺ وبيـن الناس كلهـم، ينبه الله تعالى علـى العلاقة بين الناس بعضهم مـع بعض؛ ليكمل ذلك البناء الشامخ الشامل لجميع نواحي الحياة الدنيوية والأخروية.

فنبـه الله تعالـى على أهمية التثبـت من الأخبـار حفاظًا على الصف المسـلم من الشائعات المضللة، والأكاذيب والتهم التي تذهب ثقتهم ببعضهم.

وإليك بيانها في المباحث التالية:

المبحث الأول

التثبت: معناه، والحكمة منه.

قـال الله تعالـى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾.

"هـذه الآية أصـل في التثبت من الأخبار، بل هي الأصـل في ذلك، وما عداها فهو شارح لها ومبين لدلالتها"[١].

والفاسـق المقصود به في الآية: "هو المسـلم الذي التزم حكم الشـرع وأقر به، ثم أخـل بجميع أحكامه أو بعضها، وأخل بالمروءة بناء على مقابلته بالعدل، وقد اعتبر في العدالة عدم الإخلال بالمروءة وهذا هو المشهور"[٢].

ولكـن يجـدر التنبيه إلى: "أنه سـبحانه لـم يأمر برد خـبر الفاسـق وتكذيبه، ورد شـهادته جملة، وإنما أمر بالتبين، فهكذا ينبغي الاعتماد في رواية الفاسـق وفي شهادته، وكثيـر من الفسـاق يصدقون في أخبارهم ورواياتهم وشـهادتهم، بـل كثير منهم يتحرى الصـدق غاية التحري، وفسـقه من جهات أخرى، فمثل هذا لا يرد خبره ولا شـهادته، ولـو ردت شـهادة مثل هذا لتعطلت أكثر الحقوق، وبطل كثيـر من الأخبار الصحيحة. وأما من كان فسـقه من جهة الكذب فإن كثر منه وتكرر بحيث يغلب كذبه على صدقه فهـذا لا يقبل خبره ولا شـهادته. ومن نـدر منه مرة ومرتين، فقيل: تُـرَد، وقيل: لا ترد. وهما روايتان عن الإمام أحمد"[٣].

---

(١) سورة الحجرات دراسة تحليلية ص٢٨١.

(٢) روح المعاني ٩/ ١٤٥.

(٣) مدارج السالكين ١/ ٣٦٠- ٣٦١، بدائع التفسير ٤/ ١٨٠.

"في الآية ردّ خبر الفاسق، واشتراط العدالة في المخبر -راويًا كان، أو شاهدًا، أو مفتيًا- ويستدل بالآية على قبول خبر الواحد العدل"[(١)] قال شيخ الإسلام: "يتناول خبر كل فاسق -وإن كان كافرًا- لا يجوز تكذيبه إلا ببينة، كما لا يجوز تصديقه إلا ببينة"[(٢)]، "فأمر بالتبين والتثبت إذا أخبر الفاسق بخبر، ولم يَأْمُر بتكذيبه بمجرد إخباره؛ لأنه قد يصدق أحيانًا، فلما أمر سبحانه بالتبين والتثبت في خبر الفاسق، دل ذلك على أنه لا يجوز تصديقه بمجرد إخباره؛ إذ كان فاسقًا قد يكذب، ولا يجوز أيضًا تكذيبه قبل أن يعرف أنه قد كذب وإن كان فاسقًا؛ لأن الفاسق قد يصدق"[(٣)].

فعلينا التبين والتثبت عند خبر الفاسق الواحد، ولم نؤمر به عند خبر الفاسقين، وذلك أن خبر الاثنين يوجب من الاعتقاد ما لا يوجبه خبر الواحد، أما إذا عُلِمَ أنهما لم يتواطآ فهذا قد يحصل به العلم[(٤)].

"وإنما كان الفاسق معرَّضًا خبره للريبة والاختلاق؛ لأن الفاسق ضعيف الوازع الديني في نفسه، وضعف الوازع يجرئه على الاستخفاف بالمحظور وبما يخبر به في شهادة أو خَبَر يترتب عليهما إضرار بالغير أو بالصالح العام، ويقوي جُرأته على ذلك دومًا إذا لم يتب ويندم على ما صدر منه ويقلع عن مثله"[(٥)].

وتخصيص الفاسق؛ لأنه مظنة الكذب، والأخذ بخبر الصالح جزء من منهج التثبت؛ لأنه أحد مصادره. أما الشك المطلق في جميع المصادر وفي جميع الأخبار، فهو مخالف

(١) محاسن التأويل ٨/ ٥٢٤.
(٢) الجواب الصحيح ٦/ ٤٦١.
(٣) الجواب الصحيح ٦/ ٤٥٥.
(٤) الفتاوى الكبرى ٥/ ٥٧٥.
(٥) التحرير والتنوير ٢٦/ ٢٣١.

لأصل الثقة المفروض بين المؤمنين، ومعطل لسير الحياة، فالإسلام يضع الضمانات لصيانتها لا لتعطيلها، وهذا نموذج من الإطلاق والاستثناء في مصادر الأخبار.

"هذه من الآداب التي على أولى الألباب التأدب بها واستعمالها، وهو أنه إذا أخبرهم فاسقٌ بخبرٍ فعليهم أن يتثبتوا في خبره ولا يأخذوه مجردًا، فإن في ذلك خطرًا كبيرًا ووقوعًا في الإثم؛ فإن خبره إذا جعل بمنزلة الصادق العدل حكم بموجب ذلك ومقتضاه، فحصل من تلف النفوس والأموال بغير حق بسبب ذلك الخبر ما يكون سببًا في الندامة، بل الواجب عند سماع خبر الفاسق التثبت"[(١)].

ومن الهدايات القرآنية في قوله تعالى: ﴿فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ يقول القاسمي: "مدح المؤمنين، أي لستم ممن إذا فعلوا سيئة لا يلتفتون إليها، بل تصبحون نادمين عليها"[(٢)]، "وحق المؤمن أن يحترز مما يخاف منه الندم في العواقب"[(٣)]. والإنسان إذا وضع شيئًا في غير موضعه كان جديرًا بالندم، وتلك سنة الله في كل باطل؛ فإنه لكون الكلام مزلزَلًا في نفسه لا ينشأ عنه إلا الزلزال، والندم على ما وقع من تمني أنه لم يقع، وهو غمٌّ يصحب الإنسان صحبةً لها دوام بما تدور مادته عليه، وهو ينشأ من تضييع أثقال الأسباب التي أمر الإنسان بالسعي فيها، كما أشار إليه حديث: «**احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، فإن غلبك أمر فقل: قدر الله وما شاء فعل، ولا تقل: لو أني فعلت كذا، فإن «لو» تفتح عمل الشيطان**»[(٤)][(٥)].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن للسعدي ص٧٤٤.

(٢) محاسن التأويل ٨/ ٥٢٤.

(٣) محاسن التأويل ٨/ ٥٢٢.

(٤) صحيح مسلم، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله (٢٦٦٤).

(٥) ينظر: نظم الدرر ٧/ ٢٢٧.

المبحث الثاني
آفات الأخبار

إنَّ أيَّ خبرٍ من الأخبار[١] -وخصوصًا التي تتناقل في هذا الوقت الذي اتسعت فيه وسائل الاتصال- يغلب عليه آفة الكذب، وهي آفة عظيمة جدًا يندرج تحتها آفات كثيرة، وتثمر ثمارًا خطيرة.

فالكذب معلومٌ خطره وقبحه، ونزل الوحي بالتحذير منه، فقد ذم الله تعالى الكذابين ووصفهم بعدم الإيمان حيث قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ [النحل: ١٠٥]، وقال رسول الله ﷺ: **«وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابًا»**[٢].

"واعلم أن مذهب أهل السنة والجماعة أن الكذب: هو الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو عليه"[٣]. ويدخل في ذلك: ذكر بعض الحقيقة وإخفاء بعضها.

"وتكمن خطورة الكذب في أن مرتكبه قد ينسف بخبر واحد مكذوب أو منقوص أعمالًا جليلة ومكانة سامقة، ويرمي بالكِذْبة لا يلقي لها بالا فتبلغ من خطورتها وضررها آفاقًا بعيدة، فقد يسقط الرجل عند الناس من الثريا إلى الثرى بكلمة واحدة ملفقة"[٤].

---

(١) يستثنى من ذلك الأخبار الواردة عن الله تعالى وعن رسول الله ﷺ المنقولة إلينا عن طريق الثقات. وآفات أخرى لا تقل شأنًا عن الكذب: كالنميمة، والغيبة.

(٢) صحيح مسلم كتاب البر والصلة باب تغليظ أمر الكذب (٢٦٠٧).

(٣) الأذكار للإمام النووي ص٣٢٦.

(٤) نحو منهج شرعي لتلقي الأخبار وروايتها، مسند أحمد الصويان ص٢٣.

ومن صور الكذب التلفيق، وهو أن يُنْسَبَ كلامٌ إلى شخصٍ لم يقله، عن طريق جمع بعض أقوله في مواطن متفرقة مع عدم مراعاة المواقف والمواضع التي قيلت فيها تلك الأقوال، فيؤدي ذلك إلى تلفيق كلام أو معنى غير مراد إلى ذلك الشخص، الذي قد يشتهر بالصلاح والإصلاح.

وأكثر ما يكون هذا في جانب العلماء، فترى كثيرًا من الذين يحترفون تتبع زلات العلماء وتجريحهم يلجؤون إلى تلك الطريقة، فيجمعون أقوال أحد العلماء في مسألة معينة، غير مراعين الوقت الذي قيلت فيه، والمناسبة التي قيلت فيها تلك الكلمة!!

وأعظم من ذلك: أن تستخرج الجمل من بين قول العالم من غير مراعاة ما قاله قبل تلك الجملة أو بعدها، فيؤدي ذلك إلى رمي العالم بغير ما قاله -والعياذ بالله تعالى- وذلك كالذين يأخذون قول الله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ ويتركون ما بعده من وصف هؤلاء المصلين!! ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٤-٧] فبذلك ينفرون من الصلاة، ولا يظهرون أمر الصلاة على حقيقته.

وأيضًا يندرج تحت التلفيق والكذب آفات كثيرة كالإشاعة والزيادة والنقص في الكلام، والتعيير، والتناجي بين اثنين بحضور ثالث، والسخرية، وأيضا ما يكون في الخبر من إثارة النعرات القومية والتفريق بين المسلمين، والنميمة، والغيبة، والبهتان.. وغيرها من الأمور السيئة التي تخرج من اللسان ويكون فيها تفريق بين المسلمين[١].

(١) سيأتي الحديث عن هذه الآفات بشيء من التفصيل في مبحث: خوارم الأخوة، في الفصل الخامس من هذا البحث.

المبحث الثالث
أصناف الناس في تلقي الأخبار ومن تقبل روايته منهم

الناس إزاء الأخبار التي تثار حول شخص أو هيئة ما -وكذا في معلومة شرعية أو غيرها- ينقسمون بحسب تعاملهم مع هذه الشائعات إلى ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: من يقبل هذه الأخبار على عَلاَّتِهَا، ويكتمها في نفسه، ويرتب عليها أمورًا ومواقف من غير تثبت ولا تبين.

الصنف الثاني: من يقوم بالتناجي بها، بعيدًا عن صاحب الشأن فيها، ومعلوم ما في ذلك من الوقوع في الغيبة، وإذكاء الشائعة وانتشارها.

الصنف الثالث: من يسارع إلى التثبت من الخبر ممن أثيرت حوله مباشرة، ولا يذهب مع الظنون والوساوس النفسية أو المناجاة التي تحزن المسلم.

من تقبل روايته ومن لا تقبل منهم؟

"تمتلك هذه الأمة بفضل الله تعالى أعظم منهج في تنقيح الأخبار والمرويات، وقد بنى أئمتنا الكرام رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ هذا النهج الكريم على أسس قوية وضوابط علمية دقيقة لا لبس فيها ولا غموض، فميزوا بين الثقات والمجروحين من الرواة، والصحيح والضعيف من المرويات، بكل تثبت وإنصاف، بعيدا عن الأهواء الشخصية، والتعصبات المذهبية.

ولم تظهر آثار هذا المنهج الكريم في تنقيح السنة النبوية المشرفة فحسب، بل تعداه ليشمل جوانب متعددة من الفكر الإسلامي كالتاريخ ورجاله والأدب ورجاله وغيرها.."[١].

---

(١) نحو منهج شرعي لتلقي الأخبار وروايتها ص٤١.

"ومـن هاهنا امتنع طوائف من العلماء من قبول رواية المجهول الحال؛ لاحتمال فسقه في نفس الأمر، وقبلها آخرون؛ لأنا إنما أمرنا بالتثبت عند خبر الفاسق، وهذا ليس بمحقق الفسق؛ لأنه مجهول الحال"[١].

و"**شروط من تُقبل روايته أربعة:** الإسلام، والتكليف، والعدالة، والضبط"[٢].

ويجـدر التنبيه إلى التفريق بين قبول خبر المسـلم في الأمور العادية التي لا تتعلق بالحكم على الآخرين ونحوها، وبين التثبت فيما إذا نقل السـوء والثلم في عرض أحد من المسلمين، وأن الحكم مختلف في المسألتين.

---

(١) شرح الطحاوية ٤٩١.

(٢) جامـع الأصـول في أحاديث الرسـول ١/ ٧٢. وللاسـتزادة من هـذا الموضوع انظر: شـرح نخبة الفكر للإمام ابن حجر.

المبحث الرابع
ما ينبغي على المسلم عند سماع الإشاعات والأخبار

إن الطريقة الشرعية التي ينبغي على المسلم أن يلتزمها عند سماعه للشائعات تقوم على: التثبت وحب الخير للمسلمين ورعاية حقوقهم وأعراضهم، والتماس الأعذار لهم، وعلى هذا فينبغي للمسلم إذا سمع بخبر أن يلتزم بهذه الأمور:

أولا: أن يطلب الدليل على الخبر (التثبت):

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾ [الحجرات: ٦]، وقال تعالى عن حادثة الإفك: ﴿ لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴾ [النور: ١٣]. "قال العلماء: إن الآية أصلٌ في أن درجة الإيمان التي حازها الإنسان، ومنزلة الصلاح التي حلها المؤمن، ولبسة العفاف التي يستتر بها المسلم، لا يزيلها عنه خبر محتمل -وإن شاع- إذا كان أصله فاسدا أو مجهولا"(١).

فالتثبت هو: "طلب التأني حتى يتضح الحال"(٢)، قال رسول الله ﷺ: «**التأني من الله، والعجلة من الشيطان**»(٣).

وإن من العدل والإنصاف أن يتثبت المسلم ويتبين كل خبر أو ظاهرة، قبل الحكم عليها، وإن من الظلم والاعتداء الحكم على أمر بمجرد الظنون والأوهام وقبل التثبت التام منه وتبيّن حقيقته، ولقد بيّن الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لنا في سورة الإسراء -وفي آية واحدة-

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٥/ ١٧٢.

(٢) روح المعاني ٩/ ١٤٥.

(٣) أخرجه أبو يعلى في مسنده ٣/ ١٠٥٤، والبيهقي في السنن الكبرى ١٠/ ١٠٤، وحسنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ٤/ ٤٠٤ح(١٧٩٥).

المنهج الصحيح الذي ينبغي سلوكه في مثل هذه الأمور، يقول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦].

فالتثبت من كل خبر، ومن كل ظاهرة، ومن كل حركة، وتبينها قبل الحكم عليها، هو أمر الله الصريح في القرآن الكريم، ومنهج الإسلام الدقيق، ومتى استقام القلب والعقل على هذا المنهج لم يبق مجال للوهم والخرافة في عالم العقيدة والمعاملات، ولم يبق مجال للظن والشبهة في عالم الحكم والقضاء والعلاقات.

قال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴾ فهذه الآية تأمر المؤمنين بالتثبت والتبين في الأخبار المنقولة إليهم عن طريق الفساق، لكي لا يحكموا بموجبها على الناس فيندموا، "وتنبيه على أنه إذا كان الخبر شيئًا عظيمًا وله قدر، فحقه أن يتوقف فيه -وإن علم أو غلب صحته على الظن- حتى يعاد النظر فيه ويتبين"(١).

لماذا التثبت من الأخبار؟

١- حتى لا يشيع الشك بين المسلمين في كل ما ينقله أفرادها من أنباء؛ إذ الأصل في أبناء المجتمع المسلم أن يكون أفراده موضع ثقة، وأن تكون الأخبار بينهم مصدقة مقبولة.

٢- حتى لا يتصرف المسلم بناء على هذا الخبر تصرفًا يظلم به قومًا عن جهالة وتسرع، قال تعالى: ﴿ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴾.

٣- حتى لا يندم على ترك أمرٍ صدقٍ لم يتثبت منه، أو يرفضه بسبب عدم التبين منه، ممّا يغضب الله؛ لأن هذا مخالف للأدب مع تلقي أوامر الله.

(١) روح المعاني ٩/ ١٤٥.

٤- حتى يستقيم كيان المسلمين ولا يتزعزع بمجرد خبر لا أصل له من الصحة، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ ﴾ [النساء: ٩٤].

ثانيا: أن لا يتحدثَ بما سمعه، ولا ينشرُه.

قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَـٰذَا سُبْحَـٰنَكَ هَـٰذَا بُهْتَـٰنٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ١٦]، "وهذا تأديبٌ ثالثٌ لمن سمع شيئًا من الكلام السيّئ، فقام بذهنه شيءٌ منه، فلا يكثر منه ويشيعه ويذيعه"[١] قالت عائشة رضي الله عنها: وكان رسول الله ﷺ سأل زينب بنت جحش رضي الله عنها عن أمري، فقالت: يا رسول الله **أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت عليها إلا خيرًا**. وهي التي كانت تساميني[٢] من أزواج النبي ﷺ، فعصمها الله تعالى بالورع. قالت: فطفقت أختها حمنة تحارب لها، فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك"[٣]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**كفى بالمرء إثما أن يحدث بكل ما سمع**»[٤].

ثالثا: أن يقدم حسن الظن بأخيه المسلم، وأن يُنزل أخاه المسلم منزلته:

قال تعالى: ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَـٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ [النور: ١٢].

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٦/ ٢٩.

(٢) **تساميني**: أي: تعاليني، من السمو والعلو والارتفاع، أي: تطلب من العلو والرفعة والحظوة عند النبي ﷺ ما أطلب. فتح الباري ٧/ ٣٣٦.

(٣) صحيح البخاري كتاب التفسير باب ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا ﴾ (٤٧٥٠). صحيح مسلم كتاب التوبة باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف (٢٧٧٠).

(٤) تقدم تخريجه.

"**والمراد**: أن الذي ينبغي للإنسان، أولًا: أن لا يظن بإخوانه المؤمنين -ولا يسمع فيهم- إلا خيرًا، فإن غلبه الشيطان وارتسم شيء من ذلك في ذهنه، فلا يتكلمْ به، ويبادرُ إلى تكذيبه"(١).

فقد ورد أن الآية هذه نزلت في أبي أيوب الأنصاري وزوجته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وذلك أن أبا أيوب قالت له امرأته أم أيوب: يا أبا أيوب، أما تسمع ما يقول الناس في عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ؟! قال: بلى، وذلك الكذب. أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا، والله؛ ما كنت لأفعله. قال: فعائشة والله خير منك(٢).

فإن "الإيمان رحم بين المؤمنين، يوجب عليهم ظن الخير ببعضهم، والكف عن الطعن فيهم، ومنع الطاعنين عنهم كما يمنعونهم على أنفسهم"(٣).

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴾ [النساء: ٩٤].

رابعا: سلامة الصدر للمسلمين.

قال تعالى: ﴿ وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ [النور: ٢٢].

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ١٣/ ٢٣٢.

(٢) البداية والنهاية ٨/ ٦٠، وتفسير القرآن العظيم- ابن كثير ٦/ ٢٦، وأسباب النزول للواحدي (٢٧٠). والسيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٣١٥، وجامع البيان- الطبري ١٨/ ٧٧.

(٣) موضوعات سور القرآن - سورة النور- عبدالحميد طهماز ص٣١.

تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: لما أنزل الله تعالى هذا في براءتي قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه -وكان ينفق على مسطح بن أثاثه لقرابته منه وفقره-: والله لا أنفق على مسطح شيئًا أبدًا بعد ما قال لعائشة رضي الله عنها فأنزل الله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فقال أبو بكر رضي الله عنه: بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان يجري عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبدًا"[(١)].

خامسا: أن يرد الأمر إلى الله ورسوله وإلى أولى الأمر من العلماء والأمراء.

وهذه قاعدة عامة في كل الأخبار المهمة، والتي لها أثرها الواقعي، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ [النساء: ٨٣].

"في هذه الآية تأديب لكل من يحدث بكل ما يسمع -وكفى به كذبا- وما أعظم المفسدة في لهج العامة بكل ما يسمعون من أخبارهم، خيرًا أو غيره"[(٢)].

فمهمة المسلم، حين يبلغ إلى أذنيه خبر، أن يسارع فيخبر به العلماء، لا أن ينقله ويذيعه بين الناس وبين من لا شأن لهم به؛ لأن العلماء هم من يمتلك استنباط الحقيقة، كما يملكون تقدير المصلحة في إذاعة الخبر -حتى بعد ثبوته- أو عدم إذاعته..

فلا بد من التزام المنهج الشرعي في التثبت من الأخبار ونقلها، لقطع الطريق على الفساق الذين يحبون أن تشيع الفاحشة والشر في المسلمين بعدم سماع ما يقوله الكذابون، والمنافقون، والمغتابون، وأصحاب القلوب المريضة، وعدم الرضا بذلك[(٣)].

---

(١) صحيح البخاري كتاب التفسير باب ﴿ لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا ﴾ (٤٧٥٠)، صحيح مسلم كتاب التوبة باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف (٢٧٧٠).

(٢) محاسن التأويل ٣/ ٢٣٥.

(٣) انظر مقال: التحذير من الشائعات - هشام إسماعيل، مجلة البيان- عدد (٣٣).

المبحث الخامس
الأخبار التي يجب التثبت منها وعدم نشرها

• كل خبر يجب التثبت منه، وأعظم هذه الأخبار وأشدها خطورة في الدنيا والآخرة، هي الأخبار المتعلقة **بالقول على الله أو رسوله أو العلماء -فيما يخص البلاغ في الشرع بلا علم**- قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٤]. وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢]. فأي زور أعظم من القول على الله والقول على رسوله بغير علم؟! وقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «ومن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار»(١).

• ثم يأتي أمرٌ آخر من أعظم الأخبار وأشدها خطورة على الفرد والمجتمع، قضية **نشر الشائعات التي فيها قذف للأعراض**، وقد توعد الله الذين يقذفون المؤمنين والمؤمنات ويشيعون هذه الافتراءات عليهم فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ٢٣] وقد رتب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حدًا على القاذف الذي يشيع الكلام في الأعراض؛ حفظا للأعراض وذلك من مقاصد الشريعة.

• التثبت في عرض أخبار المسلمين وما يحصل لهم؛ لأن أعداء الإسلام يعتمدون

---

(١) صحيح البخاري، كتاب العلم باب إثم من كذب على النبي ﷺ (١١٠). ومسلم، مقدمة مسلم، باب تغليظ الكذب على رسول الله ﷺ (٣).

في نشر الأخبار على إظهار بعض الحقيقة وإخفاء البعض الآخر؛ تشويهًا وبغضًا، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ [الأحزاب: ٦٩] وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٥٨].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ ﴾ فكلمة عابرة وفلتة لسان، قد تجر من العواقب على الشخص ذاته وعلى جماعته كلها ما لا يخطر له ببال وما لا يتدارك بعد وقوعه بحال.

• التثبت من التلفيقات والأكاذيب والاتهامات التي تروج عن العلماء والدعاة لزعزعة الثقة بهم، والانصراف عنهم، فكم من العلماء والدعاة قيل فيهم: "إنهم عملاء، وأصحاب مناصب ودنيا".

• والتثبت من الذين يتصيدون الأخطاء العلمية والعملية، ونشرها بين الناس، وإعطائها حجمًا كبيرًا، فيزيدون شائعات مكذوبة على أمر صغير؛ قال محمد بن نصر المروزي: "ولو أنّا كُلَّما أخطأ إمامٌ في اجتهاده في آحاد المسائل خطأً مغفورًا له، قمنا عليه وبدعناه وهجرناه، لما سلم معنا لا ابن نصر، ولا ابن منده، ولا من هو أكبر منهما، والله هو هادي الخلق إلى الحق"[١] وهو أرحم الراحمين.

فيجب على كل مسلم بعد موالاة الله ورسوله، موالاة المؤمنين -خصوصًا العلماء الذين هم ورثة الأنبياء- وهم الذين أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم؛ إذ خلفاء الرسول ﷺ من أمته علماؤها[٢].

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٤/ ٤٠.

(٢) انظر: رفع الملام لابن تيمية لتعلقه في هذا الموضوع.





الفصل الخامس
الأخوة الإسلامية

ويشتمل على ستة مباحث:

المبحث الأول: مفهوم الأخوة في الله.

المبحث الثاني: أهمية الأخوة وفضلها.

المبحث الثالث: الإصلاح بين المسلمين من أهم حقوق الأخوة.

المبحث الرابع: خوارم الأخوة:

المطلب الأول: السخرية والهمز واللمز والتنابذ بالألقاب.

المطلب الثاني: سوء الظن.

المطلب الثالث: التجسس والتحسس.

المطلب الرابع: الغيبة والبهتان.

المطلب الخامس: إثارة النعرات القومية، والعصبيات القبلية، والدعوات الجاهلية.

المطلب السادس: خوارم أخرى للأخوة.

المبحث الخامس: حقوق الأخوة الإسلامية.

المبحث السادس: آداب الأخوة.





تمهيد

قال الله تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾.

في هذه الآيات يقرر الله سبحانه مبدءًا مهمًا جدًا -لأنه من الأسس التي تقوم عليها الأمة الإسلامية- ألا وهو مبدأ الأخوة في الله تعالى. ولقد جاءت هذه الآية آمرة بالصلح بين المسلمين وإزالة الفتن التي تقع بينهم من خلافات وخصومات -ولو وصل الأمر إلى قتال من يأبى أن يستجيب لذلك-

وكذلك إزالة كل ما يؤدي للفتنة ويؤثر على العلاقة بين المسلمين.

وسنبرز هذا الأمر من خلال المباحث التالية:



المبحث الأول

مفهوم الأخوة الإسلامية

الأخوة الإسـلامية: عبارة عن كل ما يربط المسلمين بعضهم ببعض، وهذا الرابط قائم على الإيمان.

وهذه الأخوة: أخوة مقدمة على أخوة الدم والعرق، وهي أخوة قائمة على الحب في الله، والبغض في الله، والولاء لله والبراء لله، إنها أخوة أساسـها الإيمان بالله والإيمان برسول الله ﷺ.

فالأخـوة الحقيقية هي أخوة الإيمان، فلا أخوة صادقة بلا إيمان، ولا إيمان صادق بلا شـعور بالأخوة للمؤمن؛ قال تعالـى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ وقال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ [آل عمـران: ١٠٣]، وقال ﷺ: «**وكونوا عباد الله إخوانا**»[١].

"فمـن كان قائمًـا بواجب الإيمان كان أخًا لكل مؤمن، ووجب على كل مؤمن أن يقـوم بحقوقـه، وإن لم يجر بينهـم عقد خاص، فإن الله قد عقد الأخوة بين المسـلمين بقوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾"[٢].

فرابطـة الأخوة في الله هي أقوى الروابط وأصدقها وأبقاها، وهي التي تتحكم في كل العلاقات والروابط بين الناس قال تعالى: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ

(١) صحيح البخاري كتاب الأدب باب ما ينهى عن التحاسـد والتدابر (٦٠٦٥)، ومسلم كتاب البر والصلة والآداب باب التحاسد والتدابر والتباغض (٢٥٥٩).

(٢) فتاوى شيخ الإسلام ٣/ ٤١٨.

مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡ ﴾ [المجادلة: ٢٢]، فالموالاة والمعاداة والحب والبغض الذي يتحكم فيه هو الإيمان بالله تعالى.

"ومن هنا يتضح الفرق بين رباط الدم والنسب ورباط الإيمان، فإن رباط الإيمان والإسلام أقوى وأخطر؛ لأنه رباط بين العبد وربه، ورباط الإيمان حاكم على رباط الدم والنسب ومهيمن عليه، وهو الرباط الباقي فلا يفنى ولا يزول بعد الموت..

أما روابط النسب والعرق واللغة وغيرها -مع كثرتها- فإنها لا تتغلغل في القلوب ولا تتعمق في النفوس؛ لأنها في الغالب تقع للإنسان بغير اختيار، ويرتبط بها بغير إرادة، فهو يولد في أرض معينة، من جنس ولون معين، وأسرة معينة، ويتعلم لغة معينة، ولو قدر دوام هذه الروابط فإنها ستؤول إلى عداوة وقطيعة في الدار الآخرة قال تعالى: ﴿ ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧]"[١].

(١) فقه التعامل مع الناس الفوزان ص٣٢٤ باختصار.

المبحث الثاني
أهمية الأخوة وفضلها

للإخوة في الله أهمية كبيرة جدا ومكانة عالية في الإسلام، والذي يبرز هذه المكانة وهذا الاهتمام أمور وشواهد كثيرة منها:

١ - الآيات والأحاديث التي تحث على الأخوة في الله تعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾. وقال ﷺ: «**أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله**»[1]، ومن السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله «**رجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه**»[2].

٢ - أمر الله بالأخوة في الله بعد الأمر بالتقوى، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٢، ١٠٣] فالأخوة إذًا تنبثق من الإيمان بالله تعالى وتقواه.

٣ - امتن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ **على المؤمنين بنعمة الأخوة فقال تعالى:** ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

٤ - أول ما وصل رسول الله ﷺ إلى المدينة بنى المسجد ثم آخى بين المهاجرين والأنصار، أي: إن الرسول ﷺ وضع أسس قيام الدولة الإسلامية أول ما وصل، وكان

---

(١) مسند أحمد ٤/ ٢٨٦، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيح (١٧٢٨) باب الإيمان والتوحيد والدين.

(٢) صحيح البخاري كتاب الزكاة باب الصدقة باليمين (١٤٢٣). ومسلم كتاب الزكاة باب فضل إخفاء الصدقة (١٠٣١).

من أول هذه الأسس توثيق العلاقة بين الذين سيحملون هذا الدين، وذلك يتمثل في الإخاء بين المهاجرين والأنصار، وهذا يُبْرِزُ أهمية الأخوة في بناء المجتمع المسلم وحفظه واستمراريته.

٥- قدم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أخوة الدين على الأهل والأقارب فقال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

٦- شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أمورًا تحافظ على سلامة الأخوة بين المؤمنين ونهي عن أمور تكون سببًا في فساد العلاقة الأخوية بين أبناء المجتمع المسلم، كما في الآيات المفسرة معنا من سورة الحجرات وفي غيرها من السور.

كل هذه الشواهد تعطينا الدليل على أهمية الأخوة في الله تعالى ووجوبها، والحقوق التي يجب أن يلتزم بها الإخوة في الله تعالى، وما يخدش هذه الأخوة أو يساعد على عدم استمراريتها ووأدها.

المبحث الثالث

الإصلاح بين المسلمين من أهم حقوق الأخوة[١]

الإصلاح بين المسلمين من حقوق الأخوة بين المسلمين، وأفردناه هنا؛ لأهميته ونص الله عليه في هذه السور، وسنبرز هذا الأمر في النقاط التالية:

أولا: الآيات الواردة في السورة:

قال تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾.

فقد بين الله تعالى أن القتال بين المسلمين خروج عن القاعدة الأخوية التي قررها الله تعالى بقوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ فيجب اتخاذ جميع الوسائل التي تعيد المتخاصمين إلى الأصل وهو الأخوة في الله. "وإذا حصلت الرحمة، حصل خير الدنيا والآخرة، ودل ذلك على أن عدم القيام بحقوق المؤمنين من أعظم حواجب الرحمة"[٢].

ومن الرحمة: "أن لا يتصدع بنيانكم، ولا تتشتت أمتكم وتصبح جماعات وطوائف متعادية يقتل بعضها بعضا، ولما لم يتق المؤمنون الله في الإصلاح الفوري بين الطوائف الإسلامية المتنازعة حصل من الفساد والشر ما الله به عليم في الغرب الإسلامي والشرق"[٣].

---

(١) للفائدة يمكن مراجعة بحث الإصلاح بين الناس في القرآن الكريم للمؤلف.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص٨٠١.

(٣) أيسر التفاسير ٤/ ٢٩٤.

وأيضًا من معاني الرحمة في الدنيا والآخرة "أن تجري أحوالكم على استقامة وصلاح. وإنما اختيرت الرحمة؛ لأن الأمر بالتقوى واقع إثر تقرير حقيقة الأخوة بين المؤمنين، وشأن تعامل الإخوة الرحمة فيكون الجزاء عليها من جنسها"[١].

وأثبت الإيمان للفرقتين المتقاتلتين، مع احتمال أن إحداهما قد بغت على الأخرى أو أن كلًا منهما قد بغى في جانب من الجوانب، وهذا أصل كبير من أصول أهل السنة وهو بقاء أصل الإيمان عند العاصين.

وأمر الله سبحانه عباده من الذين آمنوا من غير الطائفتين المتخاصمتين أن يقوموا بواجب الإصلاح بين إخوانهم المسلمين.

وفي حالة عدم قبول إحدى الفرقتين الرجوع إلى الحق، كأن ترفض الصلح أو قبول الحكم في المسألة المتنازع عليها، فعلى المسلمين المصلحين أن يقوموا بمقاتلة الفئة التي لا تريد الصلح حتى ترجع إلى أمر الله.

وبين الله تعالى أن هذا الإصلاح والقتال يجب أن يكون بالعدل على منهج الله، قال تعالى: ﴿ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ أي: العادلين.

ثانيا: هدايات الآيات:

- "**قال القاشاني**: الاقتتال لا يكون إلا للميل إلى الدنيا، والركون إلى الهوى، والانجذاب إلى الجهة السفلية، والتوجه إلى المطالب الجزئية. والإصلاح إنما يكون من لزوم العدالة في النفس التي هي ظل المحبة، التي هي ظل الوحدة، فلذلك أمر المؤمنون الموحدون بالإصلاح بينهما"[٢].

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦/ ٢٤٥.

(٢) محاسن التأويل ٨/ ٥١٥.

- "لما كان الخصام يجر في الغالب من القول والفعل ما يورث للمصلحين إحنة على بعض المتخاصمين، فيحمل ذلك على الميل مع بعض على بعض، قال: (بالعدل) ولا يحملكم القتال على الحقد على المقاتلين فتحيفوا"[(١)].

- "**والبغي**: التعدي بغير حق والامتناع من الصلح الموافق الصواب"[(٢)].

- "ولما كان البغي من أشنع الأمور فكان ينبغي أن لم يلمّ به أحد، عبر بأداة الشك إرشادًا إلى ذلك فقال: (فإن بغت)"[(٣)].

- **قال الشهاب**: وتسمية المشاركة في الإيمان أخوّة تشبيه بليغ -أو استعارة- شبه المشاركة فيه بالمشاركة في أصل التوالد؛ لأن كلّا منهما أصل للبقاء، إذ التوالد منشأ الحياة، والإيمان منشأ البقاء الأبديّ في الجنان"[(٤)].

- الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ في الدين والحرمة، لا في النسب، ولهذا قيل: أخوة الدين أثبت من أخوة النسب؛ فإن أخوة النسب تنقطع بمخالفة الدين، وأخوة الدين لا تنقطع بمخالفة النسب"[(٥)].

- وإنما اختيرت الرحمة؛ لأن الأمر بالتقوى واقع إثر تقرير حقيقة الأخوة بين المؤمنين، وشأن تعامل الإخوة الرحمة، فيكون الجزاء عليها من جنسها"[(٦)].

- **قال القاشانيّ**: بيّن تعالى أن الإيمان يقتضي الأخوة الحقيقية بين المؤمنين؛

---

(١) نظم الدرر ٧/ ٢٣١.
(٢) فتح القدير ٥/ ٦٣.
(٣) نظم الدرر ٧/ ٢٣٠.
(٤) حاشية الشهاب ٨/ ٧٧.
(٥) الجامع لأحكام القرآن - القرطبي ١٩/ ٣٨٣.
(٦) التحرير والتنوير-ابن عاشور ٢٦/ ٢٤٥.

للمناسبة الأصلية، والقرابة الفطرية التي تزيد على القرابة الصورية والنسبة الولادية بما لا يقاس، لاقتضائه المحبة القلبية لا المحبة النفسانية، فلا أقل من الإصلاح الذي هو من لوازم العدالة وأحد خصالها، إذ لو لم يعدوا عن الفطرة لم يتقاتلوا ولم يتخالفوا. فوجب على أهل الصفاء -بمقتضى الرحمة والرأفة والشفقة اللازمة للأخوة الحقيقية- الإصلاح بينهما، وإعادتهما إلى الصفاء"[١].

- "مما يترتب على هذه الأخوة أن يكون الحب والسلام والتعاون والوحدة هو الأصل في الجماعة المسلمة، وأن يكون الخلاف أو القتال هو الاستثناء الذي يجب أن يرد إلى الأصل فور وقوعه.

- كشف كشفًا تامًا عن أنه لا يسوغ ترك الإصلاح؛ لما يؤدي إليه من تفريق الشمل المؤدي إلى وهن الإسلام وأهله، المؤدي إلى ظهور الباطل، المؤدي إلى الفساد الأعظم الذي لا تدارك له.

- دلت الآية أن الفسق بغير الكفر لا يخرج عن الإيمان، وعلى أن الإصلاح من أعظم الطاعات، وعلى وجوب نصر المظلوم؛ لأن القتال لا يباح بدون الوجوب.

- **قال القشيري**: وذلك يدل على عظم وزر الواشي والنمام، والمضرب في إفساد ذات البين، وقال: من شرط الأخوة أن لا تحوج أخاك إلى الاستعانة بك والتماس النصرة منك، ولا تقصر في تفقد أحواله بحيث يشكل عليك موضع حاجته فيحتاج إلى مسألتك"[٢].

(١) تفسير ابن عربي الطائي ٢/ ٢٦٠ ط دار الكتب العلمية، ونقله: محاسن التأويل ٨/ ٥٢٩ (بتصرف يسير).

(٢) نظم الدرر ٧ / ٢٣١-٢٣٢ باختصار.

- "وإنما اختيرت الرحمة؛ لأن الأمر بالتقوى واقع إثر تقرير حقيقة الأخوة بين المؤمنين، وشأن تعامل الإخوة الرحمة فيكون الجزاء عليها من جنسها"(١).

- وتخصيص الاثنين بالذكر دون الجمع (أخويكم)؛ لأن أقل من يقع بينهم الشقاق اثنان. فإذا لزمت المصالحة بين الأقل، كانت بين الأكثر ألزم؛ لأن الفساد في شقاق الجمع أكثر منه في شقاق الاثنين.

- **وختم التوجيه بقوله:** ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي: خافوا مخالفة حكمه، والإهمال فيه، ليرحمكم فيفصح عن سالف آثامكم، ويثيبك رضوانه"(٢).

- "أي اتقوا الله في الإصلاح بينهما بالقتال وغيره، لا تفعلوا ما صورته إصلاح وباطنه إفساد"(٣).

≪ ثالثا: مما يدل على أهمية الإصلاح بين المؤمنين كذلك:

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١]. "أي أحوال بينكم، يعني: ما بينكم من الأحوال، ألفة ومحبة واتفاق"(٤). "وتوسيط الأمر بإصلاح ذات البين بين الأمر بالتقوى والأمر بالطاعة؛ لإظهار كمال العناية بالإصلاح بحسب المقام وليندرج الأمر به بعينه تحت الأمر بالطاعة"(٥).

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور ٢٦/ ٢٤٥.
(٢) محاسن التأويل ٨/ ٥٢٩.
(٣) نظم الدرر ٧/ ٢٣٢.
(٤) تحفة الأحوذي ٧/ ١٧٩.
(٥) إرشاد العقل السليم - أبو السعود ٤/ ٣.

وقال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

قال ابن جرير: "هو: الإصلاح بين المتباينين أو المختصمين بما أباح الله الإصلاح بينهما؛ ليتراجعا إلى ما فيه الألفة واجتماع الكلمة على ما أذن الله وأمر به"[(١)].

وقال تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا﴾ [النساء: ٨٥] قال ابن عباس رضي الله عنهما: "الشفاعة الحسنة هي الإصلاح بين الناس، والشفاعة السيئة هي المشي بالنميمة بين الناس"[(٢)].

ومما يبين أهمية الإصلاح وعظم شأنه أنَّ النبي ﷺ تأخر ذات يوم عن الصلاة لكي يصلح بين إحدى القبائل، فقد ورد أن ناسًا من بني عمرو بن عوف كان بينهم شيء، فخرج إليهم النبي ﷺ في أناس من أصحابه يصلح بينهم، فحضرت الصلاة ولم يأت النبي ﷺ، فجاء بلال فأذن بالصلاة، ولم يأت النبي ﷺ، فجاء إلى أبي بكر فقال: إن النبي ﷺ حُبِسَ، وقد حضرت الصلاة، فهل لك أن تؤم الناس؟ فقال: نعم، إن شئت، فأقام الصلاة فتقدم أبو بكر. ثم جاء النبي ﷺ، فتأخر أبو بكر، وتقدم الرسول ﷺ للصلاة....[(٣)].

ومن المعلوم أيضًا أن الكذب حرام ولكن النبي ﷺ قال: «ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيرا أو يقول خيرا»[(٤)]. وفي رواية: **«ولم أسمع يرخّص في شيء**

---

(١) جامع البيان - الطبري ٧/ ٤٨١.

(٢) معالم التنزيل ٢/ ٢٥٦.

(٣) انظر نص الرواية كاملة في صحيح البخاري كتاب الصلح باب ما جاء في الصلح بين الناس (٢٦٩٠).

(٤) صحيح البخاري كتاب الصلح باب ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس (٢٦٩٢).

مما يقول الناس: «كذب» إلا في ثلاث: الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته وحديث المرأة زوجها»[١].

قال ابن حزم: "وهذا يدل على وجوب **الإصلاح** بين الناس؛ لأن ترك الكذب واجب ولا يسقط الواجب إلا بواجب"[٢].

وقال ﷺ: «كل سُلامَى مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ، كل يومٍ تطلع فيه الشمس تعدل بين الاثنين صدقة...»[٣].

وقال رسول الله ﷺ: «أفضل الصدقة صلاح ذات البين»[٤].

وعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له: «يا أبا أيوب ألا أدلك على صدقة يرضى الله تعالى ورسوله موضعها؟» قال: بلى. قال: «تصلح بين الناس إذا تفاسدوا، وتقرب بينهم إذا تباعدوا»[٥].

وقال رسول الله ﷺ قال: «ما عمل ابن آدم شيئًا أفضل من الصلاة، وصلاح ذات البين، وحسن خلق»[٦].

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة باب تحريم الكذب وبيان المباح منه (٢٦٠٥). وأبو داود في السنن في كتاب الأدب باب إصلاح ذات البين (٤٩٢١).

(٢) إحياء علوم الدين ٢/ ١٩٩.

(٣) صحيح البخاري كتاب الصلح باب فضل الإصلاح بن الناس والعدل بينهم (٢٧٠٧). ومسلم كتاب الزكاة باب اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف (١٠٠٩).

(٤) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ٧/ ٤٨٩ (١١٠٩٢)، وقال الألباني: صحيح لغيره، صحيح الترغيب والترهيب (٢٨١٧).

(٥) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٨/ ٢٥٧ (٧٩٩٩)، والبيهقي في الشعب ٧/ ٤٩٠ (١١٠٩٤)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٦٤٤).

(٦) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ٧/ ٤٨٩ (١١٠٩١)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٨١٦).

قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ قالوا: بلى، قال: صلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة»[(١)].

قال الطيبي: "فيه حث وترغيب في إصلاح ذات البين واجتناب عن الإفساد فيها؛ لأن الإصلاح سبب للاعتصام بحبل الله وعدم التفرق بين المسلمين، وفساد ذات البين ثلمة في الدين، فمن تعاطى إصلاحها ورفع فسادها نال درجة فوق ما يناله الصائم القائم المشتغل بخويصة نفسه"[(٢)].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فيجب أن يكون المصلح عالمًا بالوقائع عارفًا بالواجب، قاصدًا للعدل فدرجته هذا **أفضل من درجة الصائم القائم**"[(٣)].

"إذ قد يتصور أن يكون الإصلاح في فسادٍ يتفرع عليه سفكُ الدماء ونهبُ الأموال وهتكُ الحُرمِ أفضلَ من فرائض هذه العبادات القاصرة -مع إمكان قضائها على فرض تركها- فهي من حقوق الله التي هي أهون عنده سبحانه من حقوق العباد، فإذا كان كذلك فيصح أن يقال: هذا الجنس من العمل أفضل من هذا الجنس، لكون بعض أفراده أفضل، كالبشر خير من الملك، والرجل خير من المرأة"[(٤)].

« رابعًا: حكم الإصلاح بين الناس.

"الإصلاح فرض على الكفاية إذا قام أحدهم به سقط عن الباقين، وإن لم يفعلوا

(١) أخرجه أبو داود في السنن كتاب الأدب باب في إصلاح ذات البين (٤٩١٩)، والترمذي في الجامع كتاب صفة القيامة باب ٥٦ (٢٥٠٩) وقال "هذا حديث حسن صحيح"، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٦٩٥).

(٢) تحفة الأحوذي ٧/ ١٧٩.

(٣) إعلام الموقعين ١/ ١٠٩-١١٠.

(٤) تحفة الأحوذي ٧/ ١٧٩.

أثم الكُل "[١].

قال في المنار: "وأمرنا في الكتاب والسنة بإصلاح ذات البين، فهو **واجب شرعًا** يتوقف عليه قوة الأمة وعزتها ومنعتها، وتحفظ به وحدتها"[٢].

ويتعين وجوب الإصلاح على القادر عليه، فإذا علم إنسان من نفسه أنه قادر على أن يقوم بإحقاق الحق والحسبة ولم يكن من يصلح ولا يقوم مقامه **تعين عليه ووجب أن يقوم هو بالإصلاح وأن يسعى لذلك ويطلبه**[٣].

وللقاضي السعي للإصلاح بين الناس وأن يشير إليه قبل إصدار الحكم، قال الحافظ ابن حجر: "يجوز أن يشير الإمام بالصلح ولو اتجه الحق لأحد الخصمين وهذا هو قول الجمهور"[٤].

وقال القشيري: "إيقاعُ الصلح بين المتخاصمين **مِنْ أوْكَد عزائم الدِّين**. وإذا كان ذلك **واجبًا** فإنه يدل على عِظَمِ وِزْرِ الواشي والنَّمام والمصْدَرِ في إفساد ذات البَيْن"[٥].

قال شيخ الإسلام: "فإن المسلمين لما اقتتلوا كان **الواجب** الإصلاح بينهم كما أمر الله تعالى، فلما لم يعمل بذلك صارت فتنة وجاهلية[٦]،"فيجبُ الِإصلاحُ بين هاتين الطَّائفتين، كما أمر الله تعالى"[٧].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢/ ٢٧٠.

(٢) تفسير المنار ٩/ ٥٤٢.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٩/ ٢١٦.

(٤) فتح الباري ٥/ ٣٦٢.

(٥) لطائف الإشارات- القشيري ٧/ ٢٩٢.

(٦) مجموع الفتاوى ١٧/ ٣١١.

(٧) مجموع الفتاوى ٣٥/ ٨٥.

قال الشـوكاني: "يعني كل مسـلمين تخاصما وتقاتلا، وتخصيص الاثنين بالذكر لإثبات **وجوب الإصلاح** فيما فوقهما بطريقة الأولى"[١].

وقال القرطبي: "والأمر بالإصلاح مخاطب به جميع الناس من ذكر وأنثى"[٢].

وقـال ابن حزم: "فأمر بالإصلاح بين الاثنين كما أمر بالإصلاح بين الجماعة، ثم علمنـا تعالى **وجوب الإصلاح** بين الاثنين كوجوبـه بين الكثيرين"[٣]، وقال أبو حيان: "الواجب السعي بين الطائفتين بالصلح"[٤].

---

(١) فتح القدير ٥/ ٦٤.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٤/ ١٨١.

(٣) الإحكام لابن حزم ٤/ ٤١٧.

(٤) البحر المحيط ٨/ ١١٢.

المبحث الرابع
خوارم الأخوة

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾.

بعد أن ذكر الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ الواجب على المسلمين من الأخوة في الله، رسم المنهج الذي يحفظ هذه الأخوة من مفسداتها وخوارمها، ببيان أسباب النزاع وأصولها وتحذير المسلمين ونهيهم أن يقعوا في تلك الأمور؛ خشية أن يحصل بينهم البغضاء والتفرق، فنهى الله سبحانه عن أمور كثيرةٍ هي من أسباب ذهاب الأخوة بين المسلمين.

المطلب الأول
السخرية والهمز واللمز والتنابذ بالألقاب

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا

يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾.

بين الله تعالى في هذه الآية مجموعة من الخوارم التي تمزق الأخوة الإسلامية، وهي:

☜ أولا: السخرية:

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ ﴾، والسخرية هـي: "احتقار الناس والاستهزاء بهم، وهذا حرام؛ لأنه قد يكون المحتقر أعظم قدرًا وأحب إلى الله من الساخر"[(١)].

قال الطبريّ: "والصواب أن يقال إن الله عمّ -بنهيه المؤمنين من أن يسخر بعضهم من بعض- جميع معاني السخرية، فلا يحل لمؤمن أن يسخر من مؤمن، لا لفقره، ولا لذنب ركبه، ولا لغير ذلك"[(٢)].

يقول البقاعي: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ "لما كانت السخرية تكون بحضرة ناس، قال معبرًا بما يفهم أن من شارك أو رضي أو سكت وهو قادر فهو ساخر مشارك للقائل.

والتعبير بـ ﴿قَوْمٌ﴾ "أي: ناس فيهم قوة المحاولة، وفي التعبير بذلك هزٌّ إلى قيام الإنسان على نفسه وكفها عما تريده من النقائص؛ شكرًا لما أعطاه الله من القوة، ﴿مِّن قَوْمٍ﴾ فإن ذلك يوجب الشر؛ لأن أضعف الناس إذا حرك للانتقاص قوي بما يثور عنده من حظ النفس.

(١) تفسير القرآن العظيم -ابن كثير ٧/ ٣٧٦.

(٢) جامع البيان ٢٢/ ٢٩٨.

ولما كان الذي يقتضيه الرأي الأصيل أنه لا يستذل الإنسان إلا من أمن أن يصير في وقت من الأوقات أقوى منه في الدنيا وفي الآخرة، علل بقوله: ﴿عَسَىٰٓ﴾ أي: لأنه جدير وخليق لهم ﴿أَن يَكُونُواْ﴾ أي: المستهزأ بهم، ﴿خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ فينقلب الأمر عليهم، ويكون لهم سوء العاقبة"[(١)].

فكل ما أشعر بالاحتقار والاستهزاء والوسم بالجهل أو قلة الفهم أو التبسمات والضحكات التي تدل على السخرية؛ كل هذا مما يفسد العلاقة الأخوية بين المسلمين، قال ﷺ: «**لا تظهر الشماتة لأخيك؛ فيرحمه الله ويبتليك**»[(٢)].

قال ابن مسعود رضي الله عنه: "البلاء موكل بالقول، ولو سخرت من كلب خشيت أن أحول كلبًا"[(٣)].

وقال القشيري: "ما استضعف أحدٌ أحدًا إلا سلط عليه، ولا ينبغي أن تعتبر بظاهر أحوال الناس؛ فإن في الزوايا خبايا، والحق سبحانه يستر أولياءه في حجاب الظنة"[(٤)].

"ولقد بلغ بالسلف إفراط توقيهم وتصونهم من ذلك أن قال عمرو بن شرحبيل: لو رأيت رجلا يرضع عنزا فضحكت منه؛ لخشيت أصنع مثل الذي صنع"[(٥)].

وتضمنت الآية أن القيم الظاهرة التي يراها الرجال في أنفسهم، وتراها النساء في أنفسهن، ليست هي القيم الحقيقية، التي يوزن بها الناس، بل هناك قيم أخرى وإن خفيت فالله يعلمها ويزن بها العباد.

---

(١) نظم الدرر ٧/ ٢٣٢ باختصار.

(٢) سنن الترمذي كتاب صفة القيامة باب٥٤ (٢٥٠٦). قال الألباني: حسن الإسناد مقطوع، ضعيف سنن الترمذي (٢٥٠٦).

(٣) نظم الدرر ٧/ ٢٣٣ باختصار.

(٤) نظم الدرر ٧/ ٢٣٣.

(٥) الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٣٨٣.

والرسـول ﷺ يقول: «**بحسـب امـرئ من الشـر أن يحقر أخاه المسـلم**»[١].

وقوله ﷺ: «**لا تظهر الشـماتة لأخيك؛ فيرحمه الله ويبتليك**»[٢]، وقوله ﷺ: «**المسـلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحقره ولا يخذله**»[٣].

☜ ثانيا: اللمز والتنابز بالألقاب.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ فنهى الله سـبحانه عن اللمـز وهو: الغمز بالوجه مثلًا، أو تحريك الشـفاه بما لا يفهم[٤]، "يعني: يزدري الناس وينتقص بهم بالفعل"[٥]، "فجعلَ اللامزَ أخاه لامزًا نفسـه؛ لأن المؤمنيـن كرجل واحد فيما يلزم بعضهم لبعض من تحسين أمره، وطلب صلاحه، ومحبته الخير"[٦].

قـال تعالـى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾. أي: "لا تتداعوا بالألقاب التي يسوء الشخص سماعها"[٧].

وقال رسـول الله ﷺ: «**لا يرمي رجلٌ رجلًا بالفسوق ولا يرميه بالكفر، إلا ارتدت عليه، إن لم يكن صاحبه كذلك**»[٨].

---

(١) صحيح مسـلم كتـاب البر والصلة باب تحريم ظلم المسـلم وخذله واحتقـاره ودمه وعرضه وماله (٢٥٦٤).

(٢) سنن الترمذي (٢٥٠٦) وقال: حديث حسن. وقال الألباني: حسن الإسناد مقطوع (تقدم تخريجه).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) المعجم الوسيط ص٨٣٨.

(٥) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨/ ٤٨١.

(٦) جامع البيان ٢٢/ ٢٩٨.

(٧) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٧/ ٣٧٦.

(٨) صحيح البخاري كتاب الأدب باب ما ينهى من السباب واللعن (٦٠٤٥).

وقـال عليه الصلاة والسـلام: «ليس المؤمن بالطعّان ولا اللعّـان ولا الفاحش ولا البذيء»[(١)].

وقـال ﷺ: «مـن دعا رجـلا بالكفر - أو قال: عـدو الله - ولـيـس كذلك، إلا حار عليه»[(٢)].

المطلب الثاني

سوء الظن

قـال تعالـى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ﴾.

قـال تعالـى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ ﴾ "يقـول تعالى ناهيًا عباده المؤمنين عن كثير من الظن، وهو: التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس في غير محله؛ لأن بعض ذلك يكون إثمًا محضًا، فليتجنب كثيرًا منه احتياطًا"[(٣)].

وقوله ﷺ: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تجسسوا ولا تحسسوا»[(٤)].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: "ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك المسلم إلا خيرًا وأنت تجد لها في الخير محملًا"[(٥)].

---

(١) مسـند أحمد ح(٣٨٢٩). سـنن الترمذي كتاب البر والصلة باب ما جاء في الفحش والتفحش (١٩٧٧) وقال: حديث حسن. وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٣٢٠).

(٢) صحيح مسلم كتاب الإيمان باب بيان حال من رغب عن أبيه وهو يعلم (٦١).

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٧/ ٣٧٧.

(٤) صحيـح البخـاري كتاب النكاح بـاب لا يخطب على خطبة أخيه حتى ينكح أو يدع (٥١٤٣). ومسـلم كتاب البر الصلة باب الظن والتجسس والتنافس والتناجش (٢٥٦٣).

(٥) الدر المنثور ٧/ ٥٦٥.

إنَّ هـذه الآيـة تقيـم حمايـةً في المجتمـع، ليكون مجتمعًـا فاضلًا كريمًـا، بحفظ حرمات الأشـخاص وكرامتهم وحرياتهم، وتعليم المسـلمين كيف ينظفون مشاعرهم وضمائرهم من غائلة حقوق الآخرين.

قـال الغزالـيّ: "اعلم أن سـوء الظن حـرام مثل سـوء القول، فكما يحـرم عليك أن تحدّث غيرك بلسـانك بمسـاوئ الغير، فليس لك أن تحدّث نفسـك وتسـيء الظن بأخيك، ولسـت أعني به إلا عقد القلب وحكمه على غيره بسـوء الظن. فأما الخواطر وحديث النفس فهو معفوّ عنه، بل الشـك أيضا معفـوّ عنه، ولكن المنهيّ عنه أن يظن، والظن عبارة عما تركن إليه النفس ويميل إليه القلب.

وسـبب تحريم سوء الظن: أن أسـرار القلوب لا يعلمها إلا علام الغيوب، فليس لـك أن تعتقد في غيرك سـوءا إلا إذا انكشـف لك بعيان لا يقبل التأويـل، فعند ذلك لا يمكنك ألا تعتقد ما علمته وشاهدته. وما لم تشاهده بعينك ولم تسمعه بأذنك، ثم وقع في قلبك، فإنما الشيطان يلقيه إليك، فينبغي أن تكذّبه فإنه أفسق الفساق -إلى أن قال:- فلا يستباح ظن السوء إلا بما يستباح به المال، وهو بعين مشاهدة، أو بينة عادلة[١].

معالم سوء الظن:

- "لا يجوز ظن السـوء بأهل الصلاح والإصلاح في الأمة، فإن سـوء الظن هو الذي قد يترتب عليه قول باطل أو فعل سوء أو تعطيل معروف"[٢].
- "ليس للمسـلم أن يظن بالمسـلم شـرًا إلا إذا انكشـف أمر لا يحتمل التأويل وتؤيده القرائن والأحوال والملابسات المقتضية له.

(١) إحياء علوم الدين ٣/ ١٥٠.

(٢) أيسر التفاسير ٤/ ٢٩٥.

- إن أخبرك بذلك عدلٌ فمال قلبك إلى تصديقه كنت معذورًا، لأنك إن كذبته كنت قد أسأت الظن بالمخبر، فلا ينبغي أن تحسن الظن بواحد وتسيء بالآخر، بل ينبغي أن تبحث هل بينهما عداوة وحسد؟ فتتطرق التهمة حينئذ بسبب ذلك[١] - أو تأويل أو شائعة - فلا ينبغي سوء الظن بأحدهما، بل حملهما على السلامة، ومحاولة الترجيح أسلم، لا سيما في زماننا هذا.

- من ثمرات سوء الظن التجسس؛ فإن القلب لا يقنع بالظن، بل يطلب التحقيق فيشتغل بالتجسس، فيصل بذلك إلى هتك ستر المسلم.

وسوء الظن يعبر عنه العلماء بالغيبة القلبية، فكما أن المسلم لا يجوز له أن يغتاب أخاه المسلم بلسانه، فكذلك لا يجوز له أن يغتابه بقلبه حتى ولو لم يعلم عنه أحد.

المطلب الثالث

التجسس والتحسس

قال تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾.

قال ابن جرير: "أي لا يتبع بعضكم عورة بعض، ولا يبحث عن سرائره، يبتغي بذلك الظهور على عيوبه، ولكن اقنعوا بما ظهر لكم من أمره، وبه فاحمدوا أو ذموا، لا على ما تعلمونه من سرائره"[٢].

قال الغزاليّ: "ومعنى التجسس أن لا يترك عباد الله تحت ستر الله، فيتوصل إلى الاطلاع وهتك الستر، حتى ينكشف له ما لو كان مستورًا عنه، كان أسلم لقلبه

---

(١) مختصر منهاج القاصدين ص١٧٧ بتصرف.

(٢) محاسن التأويل ٨/ ٥٣٥.

ودينه"[١].

وقال ﷺ: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا ولا تحسسوا»[٢].

وخطب النبيّ ﷺ فرفع صوته حتى أسمع العواتق في خدورهن، فقال: «يا معشر من آمن بلسانه، ولم يخلص الإيمان إلى قلبه! لا تتبعوا عورات المسلمين، فإن من تتبع عورات المسلمين تتبع الله عورته حتى يفضحه ولو في جوف بيته»[٣].

فالتجسس هو: "التفتيش عن بواطن الأمور، وأكثر ما يقال في الشر"[٤].

وقيل في الفرق بين التجسس والتحسس: إن التجسس: "تتبع العورات من أجل الغير، ومنه جاء الجاسوس، والجساسة -وهي الدابة التي تجس الأخبار للدجال- أما التحسس: فتتبع العورات من أجل النفس، وقيل: إن معناهما واحد في تطلب معرفة الأخبار"[٥].

وقيل: "التجسس: هو السؤال عن العورات من غيره، والتحسس: اكتشاف ذلك بنفسه"[٦].

يقول بعضهم: "ولقد تأملت في آية سورة الحجرات، فبدا لي أن وقوع النهي عن التجسس بين النهي عن سوء الظن وبين النهي عن الغيبة له دلالة مهمة، وذلك أن التجسس يجمع خصالا متعددة أهمها سوء الظن وتتبع العورات والغيبة، فإن التجسس أول ما ينشأ عن سوء الظن ثم بعد سوء الظن يبدأ التجسس وتتبع العورات، وبعد ذلك

---

(١) إحياء علوم الدين ٣/ ١٥٢.

(٢) صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب لا يخطب على خطبة أخيه حتى ينكح أو يدع (٥١٤٣)، ومسلم في كتاب البر والصلة باب تحريم الظن والتجسس والتنافس (٢٥٦٣).

(٣) سنن الترمذي كتاب البر والصلة باب ما جاء في تعظيم المؤمن (٢٠٣٢)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (١٦٥٥).

(٤) النهاية في غريب الحديث (١/ ٢٧٢).

(٥) النهاية في غريب الحديث (١/ ٢٧٢).

(٦) الكليات (٣١٣).

يحدث المتجسس عما رآه أو سمعه"[١].

إن للناس حرياتهم وحرماتهم وكراماتهم التي لا يجوز أن تنتهك في صورة من الصور، ولا أن تمس بحال من الأحوال، ففي المجتمع الإسلامي الرفيع الكريم يعيش الناس آمنين على أنفسهم، آمنين على بيوتهم، آمنين على أسرارهم، آمنين على عوراتهم، ولا يُقبل أي تبرير -مهما يكن- لانتهاك حرمات الأنفس والبيوت والأسرار والعورات.

المطلب الرابع

الغيبة والبهتان

قال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ وَاتَّقُوا اللَّهَۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ فشبه الله سبحانه الذي يغتاب أحدًا من المسلمين بالذي يأكل لحم الأخ ميتًا وهذا دليل على شناعة ما يفعله ذلك المغتاب.

"فجعل جهة التحريم كونه أخًا أخوة الإيمان، ولذلك تغلظت الغيبة بحسب حال المؤمن، فكلما كان أعظم إيمانًا كان اغتيابه أشد"[٢].

وينبهنا رسول الله ﷺ على معنى الغيبة وحقيقتها، فقد قال يوما لأصحابه: «أتدرون ما الغيبة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: **«ذكرك أخاك بما يكره»** قيل: أرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ فقال عليه الصلاة والسلام: **«إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته»**[٣].

---

(١) سورة الحجرات دراسة تحليلية وموضوعية (٣٣٣).

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٨/ ٢٢٥.

(٣) صحيح مسلم كتاب البر والصلة باب تحريم الغيبة (٢٥٨٩).

فالغيبة هي: أن تذكر الإنسان في غيبته بسوء وإن كان فيه[١].

فكم ترى من إنسان متورع عن الفواحش والظلم، ولسانه يفري في أعراض الأحياء والأموات!!

أما البهتان فهو: الكذب والافتراء[٢]، وهو أن تذكر أخاك بما يكره مما ليس فيه، وهو كما قال رسول الله ﷺ **«وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته»**.

مثل الله الغيبة بأكل الميتة؛ لأن الميت لا يعلم بأكل لحمه كما أن الحي لا يعلم بغيبة من اغتابه. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إنما ضرب الله هذا المثل للغيبة؛ لأن أكل لحم الميت حرام مستقذر، وكذا الغيبة حرام في الدين وقبيح في النفوس. وقال قتادة: كما يمتنع أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا كذلك يجب أن يمتنع من غيبته حيا"[٣].

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إياكم وذكر الناس فإنه داء، وعليكم بذكر الله فإنه شفاء. وسمع علي بن الحسين رضي الله عنهما رجلا يغتاب آخر، فقال: إياك والغيبة؛ فإنها إدام كلاب الناس. وقيل لعمرو بن عبيد: لقد وقع فيك فلان حتى رحمناك، قال: إياه فارحموا. وقال رجل للحسن: بلغني أنك تغتابني! فقال: لم يبلغ قدرك عندي أن أحكمك في حسناتي[٤].

قال أبو قلابة الرقاشي: سمعت أبا عاصم يقول: ما اغتبت أحدًا مذ عرفت ما في الغيبة. وكان ميمون لا يغتاب أحدا، ولا يدع أحدا يغتاب أحدا عنده؛ ينهاه، فإن انتهى وإلا قام[٥].

قال القشيري: "وليس تحصل الغيبة من الخلق إلا بالغيبة عن الحق"[٦].

---

(١) النهاية في غريب الحديث ٣/ ٣٩٩.

(٢) النهاية في غريب الحديث ١/ ١٦٥.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٤٠٣

(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٤٠٤.

(٥) الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٤٠٤.

(٦) نظم الدرر ٧/ ٢٣٤.

المطلب الخامس

إثارة النعرات القومية، والعصبيات القبلية، والدعوات الجاهلية

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾.

ولما تنادى الصحابة رضي الله عنهم بقوميتهم قال رسول الله ﷺ: «أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم»[(١)].

"ولما كان قوله تعالى: ﴿ مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ ﴾ يدل على استواء الناس في الأصل، لأن أباهم واحد وأمهم واحدة، وكان في ذلك أكبر زاجرٍ عن التفاخر بالأنساب وتطاولِ بعض الناس على بعضٍ، بيّن تعالى أنه جعلهم شعوباً وقبائل لأجل أن يتعارفوا، أي: يعرف بعضهم بعضاً، ويتميز بعضهم عن بعض لا لأجل أن يفتخر بعضهم على بعضٍ ويتطاول عليه"[(٢)].

﴿ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ﴾ أي: إنما جعلناكم كذلك ليعرف بعضكم بعضا، فتصلوا الأرحام، وتبينوا الأنساب والتوارث، لا للتفاخر بالآباء والقبائل"[(٣)].

ويفيد قوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ أنه "كلما كانت التقوى أزيد رتبة، كان صاحبها أكرم عند الله، وأجل قدراً؛ فالمتقي عن المناهي الشرعية -التي هي الذنوب في عرف ظاهر الشرع- أكرم من الفاجر، وعن الرذائل الخلقية -كالجهل

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٥٥٦)، جامع البيان (٥/ ٦٢٧)، الدر المنثور (٣/ ٦٩٩)، تفسير القرآن العظيم ابن كثير (١/ ٣٨٩).

(٢) أضواء البيان ٧/ ٤١٧.

(٣) محاسن التأويل ٨/ ٥٣٩.

والبخل والشره والحرص والجبن- أكرم من المجتنب عن المعاصي الموصوف بها"[١]. "والأتقى لا يفتخر على غيره؛ لأنه لا يعتقد أنه أتقى"[٢].

"**قال الرازي في اللوامع**: أكرم الكرم التقوى، وهو مجمع الفضائل الإنسانية، وألأم اللؤم الفجور؛ وذلك أن الكرم اسم للأفعال المحمودة، وهذه الأفعال إنما تكون محمودة إذا كانت عن علم وقصد بها الله، وهذا هو التقوى، فليس التقوى إلا العلم وتحري الأفعال المحمودة"[٣].

"بيَّن تعالى أنه جعلهم شعوبًا وقبائل؛ لأجل أن يتعارفوا، أي: يعرف بعضهم بعضًا ويتميز بعضهم عن بعض، لا لأجل أن يفتخر بعضهم على بعض ويتطاول عليه.

وذلك يدل على أن كون بعضهم أفضل من بعض وأكرم منه إنما يكون بسبب آخر غير الأنساب. وقد بين الله ذلك هنا بقوله: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ فاتضح من هذا أن الفضل والكرم إنما هو بتقوى الله لا بغيره من الانتساب إلى القبائل"[٤].

المطلب السادس

خوارم أخرى للأخوة

١- النميمة:

قال العلماء: "النميمة نقل كلام الناس على جهة الإفساد بينهم"[٥].

---

(١) محاسن التأويل ٨/ ٥٤٠.

(٢) نظم الدرر ٧/ ٢٣٧.

(٣) المصدر السابق.

(٤) أضواء البيان ٧/ ٤١٧.

(٥) شرح النووي على صحيح مسلم ٢/ ١١٢.

قـال تعالى: ﴿ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ﴾ [القلم: ١١]. وعن حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يدخل الجنة قتات**»[١]، وفي رواية: «**لا يدخل الجنة نمام**»[٢].

وعـن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **قـال**: خرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مـن بعض حيطان المدينة، فسـمع صـوت رجلين يعذبـان في قبريهما، فقال: «**أمـا إنهما ليعذبان وما يعذبـان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة...**»[٣].

٢- التباغض:

وهو: "الكره والمقت، تقول: "تباغض القوم" أي كره ومقت بعضهم بعضًا"[٤]. قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تباغضـوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا ولا تقاطعوا، وكونوا عباد الله إخوانًا، ولا يحـل لمسـلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث**»[٥]. فقولـه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تباغضوا**» أي: لا يكره بعضكم بعضًا.

٣- التحاسد:

كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ولا تحاسـدوا**» والحسد "نوعان: محمود ومذموم، فالمذموم هو: تمني زوال النعمة عن الغير وهذا ظلم وبغي وعدوان. أما المحمود فهو: الغبطة، وهي تمنـي مثل نعمة الغير من غير زوالها، وهي المقصودة في قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا حسـد إلا في اثنتيـن: رجـل آتاه الله الكتاب وقام به آناء الليل، ورجل أعطاه الله مالًا فهو يتصدق به**

---

(١) صحيـح البخـاري كتاب الأدب باب مـا يكره من النميمة (٦٠٥٦). ومسـلم كتـاب الإيمان باب غلظ تحريم النميمة (١٠٥).

(٢) صحيح مسلم كتاب الإيمان باب غلظ تحريم النميمة (١٠٥).

(٣) صحيـح البخـاري كتاب الأدب باب النميمة من الكبائر (٦٠٥٥). ومسـلم كتـاب الطهارة باب الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه (٢٩٢) مع وجود اختلاف في اللفظ.

(٤) المعجم الوسيط (٦٤) مادة (بغض).

(٥) تقدم تخريجه.

آناء الليل والنهار»[١].

٤- التدابر:

كما قال ﷺ: **«ولا تدابروا»**. والتدابر هو: "المصارمة والهجران، وهو مأخوذ من أن يولي الرجل صاحبه دبره وقفاه ويعرض عنه بوجهه ويهجره"[٢]. وهذا فيه سوء أدب مع من تحادثه أو مع من تصادقه.

٥- الهجر:

كما قال ﷺ: **«ولا تقاطعوا.. وكونوا عباد الله إخوانًا، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث»** وقال ﷺ: **«تفتح أبواب الجنة يوم الاثنين والخميس، فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئًا، إلا رجلًا كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقال أنظروا هذين حتى يصطلحا»**[٣]. والتدابر داخل في الهجر.

٦- التناجي بين اثنين بحضور ثالث:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ [المجادلة: ٩، ١٠].

قال ﷺ: **«إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس، من أجل أن ذلك يحزنه»**[٤].

---

(١) صحيح البخاري كتاب فضائل القرآن باب اغتباط صاحب القرآن (٥٠٢٥). ومسلم كتاب الصلاة، باب فضائل من يقوم بالقرآن ويعلمه (٨١٥).

(٢) لسان العرب ٤/ ٢٧٢ مادة (دبر).

(٣) صحيح مسلم كتاب البر والصلة والأدب، باب النهي عن الشحناء والتهاجر (٢٥٦٥).

(٤) صحيح البخاري كتاب الاستئذان باب إذا كانوا أكثر من ثلاثة فلا بأس بالمساواة والمناجاة (٦٢٩٠)، ومسلم كتاب السلام باب تحريم مناجاة الاثنين دون الثالث بغير رضاه (٢١٨٤).

٧- إبراز أخطاء الناس وفضحهم:

الناس يكرهون أن تَبرز أخطاؤهم وعيوبهم أمام الآخرين، فالتعيير والتشهير والنصيحة في العلن، أو ذكر الخطأ في الملأ من أسرع ما يزيل المحبة ويزرع العداوة بين الإخوان؛ لما يشعر به المنصوح من الفضيحة والتوبيخ بين الناس، وقد يولّد هذا أيضًا العناد والرغبة في الانتقام من الأخ، وقد أحسن الشافعي عندما قال[١]:

تعمدني بنصحك في انفراد   وجنبني النصيحة في الجماعة
فإن النصح بين الناس نوع   من التوبيخ لا أرضى استماعه
فإن خالفتني وعصيت قولي   فلا تجزع إذا لم تعط طاعة

و"ينبغي أن تكون النصيحة سرًا لا يطلع عليها أحد، فما كان على الملأ فهو توبيخ وفضيحة، وما كان في السر فهو شفقة ونصيحة، قال الشافعي: من وعظ أخاه سرًا فقد نصحه، ومن وعظه علانية فقد فضحه"[٢].

٨- الطمع بما في أيدي إخوانك من الدنيا:

قال ﷺ: «ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللهُ، وَازْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يحبك الناس»[٣]

فلا شك أن الذي يتطلع لما في يدك لا تحبه، والذي يشعرك بالزهد فيما بين يديك تجله، وتجعل له تقديرًا لائقًا به، لذلك لا ينبغي للعاقل أن يتطلع لما في أيدي الناس.

وإذا ألمت بك مصيبة: فاطلب مشورة أخيك، ولا تطلب منه حاجتك، فهو إن كان يعزك ويعرف قدرك، فسينبري لمساعدتك، ولا حاجة للطلب وإراقة ماء الوجه.

---

(١) ديوان الشافعي ص٩٠.

(٢) المهذب من إحياء علوم الدين لصالح الشامي ١/ ٤٠٠.

(٣) المستدرك على الصحيحين ٤/ ٣٤٨ح(٧٨٧٣) وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، والبيهقي في شعب الإيمان ٧/ ٣٤٤.

هـذه بعض خـوارم الأخوة، وهنـاك خوارم أخـرى تندرج تحت هـذه الخوارم، تركناها اختصارًا.

٩- البيع على بيع أخيه، والخطبة على خطبة أخيه.

قال ﷺ: «**لا يبع بعضكم على بيع بعض، ولا يخطب بعضكم على خطبة بعض**»(١).

(١) صحيح مسلم كتاب النكاح باب تحريم الخطبة على خطبة أخيه حتى يأذن أو يترك (١٤١٢).

المبحث الخامس

حقوق الأخوة الإسلامية

للأخوة في الله حقوق كثيرة، والمقصود هنا الحقوق الواجبة[١] ومنها:

١- أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك وتكره له ما تكرهه لنفسك؛ كما قال ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»[٢].

٢- التواد والتراحم؛ قال ﷺ: «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**»[٣].

وقال ﷺ: «**من لا يرحم لا يرحم**»[٤].

٣- العمل على نصرتهم؛ قال ﷺ «**انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا**» قيل: أنصره مظلومًا، فكيف أنصره ظالما؟! قال: «**تحجزه عن الظلم ذلك نصره**»[٥]. وقال ﷺ: «**المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يسلمه**»[٦].

٤- الرد عن عرض الأخ المسلم؛ قال ﷺ: «**من رد عن عرض أخيه رد الله عن وجهه النار يوم القيامة**»[٧]، وقال ﷺ: «**ما من امرئ يخذل امرءًا مسلمًا في موضع تنتهك**

---

(١) اختلف أهل العلم هل هي واجبة وجوب عين أو كفاية؟ انظر كلام ابن حجر في فتح الباري ٣/ ١٣٥ح (١٢٤٠).

(٢) صحيح البخاري كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه (١٣). ومسلم كتاب الإيمان باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير (٤٥).

(٣) صحيح البخاري. كتاب الأدب باب رحمة الناس والبهائم (٦٠١١). ومسلم كتاب البر والصلة الآداب باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم (٢٥٨٦).

(٤) صحيح البخاري كتاب الأدب باب رحمة الناس والبهائم. ومسلم كتاب الفضائل باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك (٢٣١٩).

(٥) صحيح البخاري كتاب الإكراه باب يمين الرجل لصاحبه أنه أخوه إذا خاف عليه القتل أو نحوه (٦٩٥٢).

(٦) صحيح البخاري كتاب المظالم باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه (٢٤٤٢). ومسلم كتاب البر والصلة والأدب باب تحريم الظلم (٢٨٥٠).

(٧) مسند أحمد ح (٢٦٩٨٨). وسنن الترمذي كتاب البر والصلة باب الذب عن المسلم (١٩٣١). وقال:

فيه حرمته، وينتقص فيه من عرضه، إلا خذله الله في موطن يحب فيه نصرته، وما من امرئ ينصر مسلمًا في موضع ينتقص فيه من عرضه، وينتهك من حرمته، إلا نصره الله في موطن يحب نصرته»[١].

وروي: "أن سفيان الواسطي ذكر رجلًا بسوء عند إياس بن معاوية فنظر إليه وقال: أغزوتَ الروم؟ قال: لا. قال: السّندَ والهندَ والتركَ؟ قال: لا. قال: أفسَلِمَ منك الروم والسند والهند، ولم يسلم منك أخوك المسلم؟! قال: فلم أعد بعدها"[٢].

٥- **الوفاء بالعهد**؛ قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

٦- **الستر**؛ قال ﷺ: «لا يستر عبد عبدًا في الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة»[٣]. وفي رواية: «حق المؤمن على المؤمن ست خصال» وذكر منها «وإذا غاب أن ينصحه»[٤].

٧- **أداء حق المسلم على المسلم: من رد السلام، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس، وعيادة المريض، والنصيحة، واتباع الجنازة**؛ قال ﷺ: «حق المسلم على المسلم خمس: إذا لقيته فسلم عليه وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عطس فحمد الله فشمته، وإذا مرض فعده، وإذا مات فاتبعه»[٥].

٨- **إبرار القسم**؛ كما في رواية البراء للحديث: «ونصرة المظلوم، وإبرار القسم»[٦].

حديث حسن. وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (١٥٧٥).

(١) سنن أبي داود كتاب الأدب باب من رد عن مسلم غيبته (٤٨٨٤). وضعفه الألباني في ضعيف سنن أبي داود (٤٨٨٤). وقد أورده البيهقي في شعب الإيمان باب التعاون على البر والتقوى ٦/ ١١٠ح(٧٦٣٢). وقد حسن إسناده الهيثمي في مجمع الزوائد باب فيمن قدر على نصرة مظلوم أو إنكار منكر ٧/ ٢٦٧.

(٢) البداية النهاية ٩/ ٣٣٦.

(٣) صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب باب بشارة من ستر الله تعالى عيبه في الدنيا بأن يستر عليه في الآخرة (٢٥٩٠).

(٤) مسند أحمد ٢/ ٣٢١ح (٩٣٤١). والحديث صحيح؛ الموسوعة الحديثية ١٤/ ٢٢.

(٥) صحيح البخاري كتاب الجنائز باب الأمر باتباع الجنائز (١٢٤٠). ومسلم كتاب السلام باب من حق المسلم رد السلام (٢١٦٢) مع اختلاف في لفظ الحديث.

(٦) صحيح البخاري كتاب الجنائز باب الأمر باتباع الجنائز (١٢٣٩).

المبحث السادس
آداب الأخوة

الأخوة أدب جمّ وخلق رفيع ارتقـاه سعيد بن العاص، فقال: "إني لأكره أن يمر الذباب بجليسي مخافة أن يؤذيه"(١). وللأخوة آداب نص عليها الشـارع تمنح الأخوة رونقًا وبهاءً وجمالًا فمنها:

١- النية الصالحة والمخلصة لله تعالى:

بأن يكون الحب لله؛ قال ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان...وأن يحب المـرء لا يحبـه إلا لله...»(٢)، وقـال ﷺ: «أوثق عرى الإيمان المـوالاة في الله والمعاداة في الله، والحـب في الله والبغض في الله»(٣). وقـال ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى...»(٤)، فينوي المسلم اتخاذ الصديق ليكون له عونًا على أمر دينه ودنياه، وليسـتعين بـه على طاعة الله تعالـى، فبهذا يوفق الله سـبحانه الصديقين والأخوين إلى الخير ويحفظ عليهما أخوتهما.

٢- اتخاذ الصالح من الأصدقاء:

فالأخـوة الصادقة تكـون بين المؤمنين فقط، وهي التي تبقـى إلى يوم القيامة، قال تعالى: ﴿ ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧].

---

(١) العقد الفريد ٢/ ٤٢٩.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) مسند أحمد ٤/ ٢٨٦، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٥٣٩).

(٤) صحيـح البخـاري كتاب بدء الوحي باب كيف كان بدء الوحي إلى رسـول الله ﷺ (١). ومسـلم كتاب الإمارة باب قول النبي ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى...» (١٩٠٧).

٣- إخبار الأخ بمحبته في الله:

فإن هذا مما يستجلب المودة ويعمل على زيادة الألفة لقوله ﷺ: «**إذا أحب أحدكم أخاه فليعلمه أنه يحبه**»[١] فما أعظمه من أثر على النفس وما أجمله من أدب مع الإخوة.

٤- إفشاء السلام:

قال ﷺ: «**لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم**»[٢].

هذا أدب، ويعتبر من الواجبات؛ لما فيه من الأثر الكبير على زيادة الأخوة بين المسلمين كما ذكر ذلك رسول الله ﷺ فربط الرسول ﷺ ذلك بالإيمان بالله تعالى، وهذا إنما يدل على أهمية إفشاء ونشر وإظهار السلام بين المسلمين سواء كنت تعرفهم أو لا تعرفهم.

٥- التبسم والبشاشة:

قال ﷺ: «**تبسمك في وجه أخيك صدقة**»[٣].

٦- الهدية:

وللهدية أثر واضح في تصفية القلوب من الأدغال والأحقاد، يقول الرسول ﷺ:

---

(١) سنن أبي داود كتاب الأدب باب إخبار الرجل الرجل بمحبته إياه (٥١٢٤). وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي كتاب الزهد باب ما جاء في الإعلام بالحب (١٩٥٠). مسند أحمد ٤/ ١٣٠.

(٢) صحيح مسلم كتاب الإيمان باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، وأن محبة المؤمنين من الإيمان وأن إفشاء السلام سبب لحصوله (٥٤).

(٣) سنن الترمذي كتاب البر والصلة باب ما جاء في صنائع المعروف (١٩٥٦). وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٩٠٨).

«**تهـادوا تحابوا**»[١] وقبول الهدية -أيضًا- مهم جـدًّا من الطرف الآخر؛ لأن عدم قبول الهديـة قد يكون بابًا من أبواب الشـيطان ينفذ منه ليقطع حبل المودة بشـكل كامل بين الأخوين، ما لم يكن هناك سبب ظاهر لعدم قبولها كهدايا العمال ونحوها.

٧- مشاركته في الحزن والفرح:

قال ﷺ: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشـد بعضـه بعضا**»[٢]، وذلك بالكلمة الطيبة، والهدية والمساعدة والمساندة، والتشجيع أو التسلية.

٨- الإيثار:

قال تعالـى: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشـر: ٩]، أي: أن تؤثر أخاك المسلم على نفسك حتى لو كنت أنت محتاجًا فإن لم تستطع ذلك فأشركه معك في الخير الذي بيدك.

٩- العفو والصفح:

قال تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

١٠- الدعاء بظهر الغيب:

لقول الرسـول ﷺ: «**دعوة المرء المسـلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة، عند رأسه ملك موكل كلما دعا لأخيه بخير، قال الملك الموكل به: آمين ولك بمثلٍ**»[٣].

١١- الصبر واحتمال الأذى:

قـال تعالـى: ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجـر: ٨٨]، وقـال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ

---

(١) حسنه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٤٦٢)، وسنن البيهقي ٦/ ١٦٩.

(٢) صحيـح البخاري كتاب الصلاة باب تشـابك الأصابع في المسـجد وغيره. ومسـلم كتـاب البر والصلة والآداب باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم (٢٥٨٥).

(٣) صحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة باب فضل الدعاء للمسلمين بظهر الغيب (٢٧٣٣).

مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، فإن خُلق الضجر وعدم الصبر والتحمل بين الإخوان هو طريق للتفرق والاختلاف، وطريق لزوال الإخاء والود.. ولهذا كان احتمال الأذى من أدب الأخوة.

١٢- السعي لقضاء حوائجهم وتفريج كربهم:

قال ﷺ: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يُسْلمه، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرّج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة»(١).

١٣- تعاهد الأخ بالزيارة والسؤال:

خصوصًا إذا غاب عن عينيك -في المسجد أو العمل أو السكن- فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «أن رجلا زار أخًا له في قرية، فأرصد الله تعالى على مدرجته ملكا، فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخًا لي في هذه القرية. قال: هل لك عليه من نعمة تربّها عليه؟ قال: لا، غير أني أحببته في الله، قال: فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه»(٢).

١٤- التأدب معه حين سماع حديثه معك:

بأن تظهر لأخيك تلذذك بحديثه، ولا تصرف بصرك عنه، ولا تقاطعه في حديثه، حتى ولو كنت تعلمه. يقول الإمام سفيان الثوري رحمه الله تعالى: "إن الرجل ليحدثني

(١) صحيح البخاري، كتاب الإكراه، باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه (٢٤٤٢). ومسلم كتاب البر والصلة والآداب باب تحريم الظلم (٢٥٨٠).

(٢) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الحب في الله (٢٥٦٧).

بالحديث قد سمعته قبل أن تلده أمه، فيحملني حسن الأدب أن أسمعه"[١].

وقد جاء في سيرة النبي ﷺ ما يدل على هذا الأدب حتى مع الكفار، فكيف بالمسلمين؟! فقد ورد أن عتبة بن ربيعة -وكان سيدا من سادات قريش- جاء حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخي إنك منا حيث علمت من السلطة في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورًا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها، فقال له رسول الله ﷺ «**قل يا أبا الوليد أسمع**» قال: يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالًا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالًا، وإن كنت تريد به شرفًا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد به مُلكًا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الأطباء وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه؛ فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه، **حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه. قال:** «**أفرغت يا أبا الوليد؟**» قال: نعم، قال: «**فاستمع مني**»، قال: «**أفعل....**»[٢].

فلنتأمل في حسن إنصات النبي ﷺ لهذا المشرك مع إن الكلام الذي قيل فيه أذية لرسول الله، ولكن من حسن أدب الرسول ﷺ أنه كان يستمع باهتمام وبدون مقاطعة، فيا ترى كيف سيكون حال النبي ﷺ في السماع من المسلمين؟!.

١٥- صلة أهله وأقاربه بعد موته:

فإن هذا من الوفاء له بعد موته ومن حقه وحق أولاده عليك. وقد رُوي أن

---

(١) تاريخ دمشق ١/ ٤٠٩.

(٢) المستدرك على الصحيحين ٢/ ٢٧٨ح (٣٠٠٣) وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد كتاب المغازي والسير باب علو الإسلام على كل دين خالفه ٦/ ٢٠ وقال الهيثمي: رجاله ثقات إلا واحد فهو مختلف في توثيقه. السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٢٩٣.

النبي ﷺ أكرم عجوزًا دخلت عليه، فقيل له في ذلك، فقال: «إنها كانت تأتينا زمن خديجة، وإن إكرام العهد من الدين»[١].

١٦- ترك التكلف:

حتى لا يشعر الأخ أنه غريب عن أخيه، ولا يلجئه إلى الاعتذار دائمًا -بسبب هفوة صغيرة، وكلمة عابرة- ويحاسبه على النقير والقطمير.

قال تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩] أي: خذ العفو الميسر الممكن من أخلاق الناس في المعاشرة والصحبة، ولا تطلب إليهم الكمال، ولا تكلفهم الشاق من الأخلاق، وبذلك تمضي الحياة سهلة لينة على كل أفراد المجتمع مع بعضهم.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم يكلفنا ما لا نقدر عليه، فلماذا نكلف أنفسنا وغيرنا ما يرهقنا ولا نستطيعه؟! قال تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

قال الفضيل: "إنما تقاطع الناس بالتكلف، يزور أحدهم أخاه فيتكلف له، فيقطع ذلك عنه"[٢].

وكان جعفر بن محمد الصادق يقول: "أثقل إخواني عليَّ من يتكلف لي وأتحفظ منه، وأخفهم على قلبي من أكون معه كما أكون وحدي"[٣]. وقال بعض الحكماء: من سقطت كلفته دامت ألفته[٤].

---

(١) الحاكم في المستدرك ١/ ٦٢ح(٤٠) وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخان وليس له علة.
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في قرى الضيف ص٤٥ (٦٠).
(٣) قوت القلوب ٢/ ٣٧٨، إحياء علوم الدين ٢/ ١٨٩.
(٤) إحياء علوم الدين ٢/ ١٨٩، ومختصر منهاج القاصدين (١٠٠).

١٧- لا تكن جافًا مع أخيك في المعاملة:

قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. فلا تكن جافًا في تعاملك الأخوي، ولا بليدًا لا يتحرك لك وجدان، فإذا ما أخطأ عليك أخوك وجاء يستسمحك فلا تشمخ بأنفك عنه مهما كان القصد والمبررات؛ فإن كثيرًا منها من تزيين الشيطان.

١٨ - لا تكن ثقيلًا:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [الأحزاب: ٥٣] ولهذه الآية قصة، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: "لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش رضي الله عنها دعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدثون، فإذا هو كأنه يتهيأ للقيام فلم يقوموا، فلما رأى ذلك قام، فلما قام، قام من قام، وقعد ثلاثة نفر، فجاء النبي ﷺ ليدخل، فإذا القوم جلوس، ثم إنهم قاموا فانطلقت، فجئت فأخبرت النبي ﷺ أنهم قد انطلقوا، فجاء حتى دخل، فذهبت أدخل، فألقى الحجاب بيني وبينه. فأنزل الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ ﴾ الآية"[1]. ولهذا قال الله تعالى: ﴿ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ﴾.

فهذا الأدب يضفي على الأخوة طابعًا جميلًا، وهو: خفة في النفس، ولباقة في التعامل، ومراعاة لظروف الإخوان ومشاعرهم، فلا يكون ثقيلًا في زياراته وفي أفعاله وكلماته.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: «**لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام**» (٤٧٩١)، ومسلم، كتاب النكاح، باب زواج زينب بنت جحش ونزول الحجاب (١٤٢٨).

١٩- الابتعاد عن الإطراء وترك المدح:

حذر الرسول ﷺ من الإطراء والمدح؛ صيانة للأفراد من الغرور والإعجاب بالنفس، وصيانة للعلاقات الأخوية، وحفاظًا على المجتمع الإسلامي، عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمع النبي ﷺ رجلًا يثني على رجل ويطريه في المدح فقال: «**أهلكتم** -أو قطعتم- **ظهر الرجل**»[(١)].

٢٠- الاختلاف في الرأي لا يفسد للود قضية:

قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣]، فاختلافك مع أخيك في الرأي لا يؤثر على مودته في قلبك، وقد كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يكرهون الخلاف، وكانوا يحرصون على المودة، فقد كان عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يرى عدم قصر الصلاة في منى ومزدلفة، وكان عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يخالفه في ذلك، ولكن عبد الله صلى أربعًا مع عثمان! فقيل له: عبت على عثمان ثم صليت أربعًا؟! قال: «**الخلاف شر**»[(٢)].

ولنا في الإمام أحمد -رحمه الله تعالى- قدوة، يقول عن الإمام إسحاق بن راهويه:

"لم يعبر الجسر إلى خراسان مثل إسحاق بن راهويه، وإن كان يخالفنا في أشياء، فإن الناس لم يزل يخالف بعضهم بعضًا"[(٣)].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الشهادات، باب ما يكره من الإطناب في المدح وليقل ما يعلم (٢٦٦٣). ومسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب النهي عن المدح إذا كان في إفراط وخيف منه فتنة على الممدوح (٣٠٠١).

(٢) سنن أبي داود كتاب الحج، باب الصلاة بمنى (١٩٦٠)، وذكره ابن حجر في فتح الباري ٢/ ٤٠١، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود.

(٣) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٨/ ١٢٨.

٢١- عدم مواجهة الأخ بالعتاب:

وهـذا أمر مهم جـدًا في الأدب مع الإخوان؛ حيث إن الإنسـان من طبعه لا يحب العتاب من أي أحد، وعليه فإنه لا يحب أن يسمع العتاب ممن يحبهم ويثق بهم.

قـال على بن أبي طالب رَضِوَاللَّهُعَنْهُ في قوله تعالى: ﴿ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ﴾ [الحجر: ٨٥] قال: "الرضا بغير عتاب"(١). وقال الفضيل: "الفتوة: الصفح عن عثرات الإخوان"(٢).

وما أحسن قول الشاعر:

إذا كنـت في كل الأمـور معاتبـا ... خليلك لـم تلق الـذي لا تعاتبه

فعش واحـدًا أو صل أخـاك فإنه ... مقـارف ذنب مـرةً ومجـانبه(٣)

---

(١) أخرجه ابن مردويه وابن النجار عن عليّ رَضِوَاللَّهُعَنْهُ كما في الدر المنثور ٤/ ١٠٤ وفي الجامع الكبير ١٨/ ١٢ (١٣٢٥)، وأخرجه البيهقي عن ابن عباس رَضِوَاللَّهُعَنْهُ في شعب الإيمان ٦/ ٣٢٢ (٨٣٣٩).

(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٨/ ٤٣٠، والقشيري في الرسالة القشيرية ص٢/ ٣٨٠.

(٣) روضة العقلاء ص١٨٢.




الفصل السادس
الإسلام والإيمان

ويتضمن ستة مباحث:

المبحث الأول: تعريف الإسلام والإيمان وأركانهما.

المبحث الثاني: الإسلام والإيمان يجتمعان ويفترقان.

المبحث الثالث: مسألة زيادة الإيمان ونقصانه.

المبحث الرابع: حقيقة الأعراب في الآية.

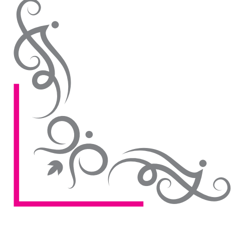
المبحث الخامس: صفات المؤمنين التي أمر اللّه تعالى بها:

المطلب الأول: الإيمان الكامل باللّه وبرسوله.

المطلب الثاني: عدم الشك والريبة في دين اللّه.

المطلب الثالث: الجهاد بالمال والنفس في سبيل اللّه.

المبحث السادس: علم اللّه تعالى بكل شيء.



تمهيد

قال تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

تكشف السورة في ختامها عن عظم ما وهبه الله للبشر، وهي هبة الإيمان التي يمنُّ بها على من يشاء، وفق ما يعلمه فيه من استحقاق، فتأتي المناسبة لبيان حقيقة الإيمان وقيمته، في الرد على الأعراب الذين قالوا: "آمنا" وهم لا يدركون حقيقة الإيمان! والذين مَنُّوا على رسول الله ﷺ بأنهم أسلموا، وهم لا يقدرون منة الله على عباده بالإيمان، فأراد الله أن يعلمهم حقيقة ما هو قائم في نفوسهم وهم يقولون هذا القول، وأنهم دخلوا في الإسلام استسلامًا، ولم تصل قلوبهم بعد إلى مرتبة الإيمان، فدل بهذا على أن حقيقة الإيمان لم تستقر في قلوبهم، ولم تشربها أرواحهم.

وقد تضمن هذا الجزء من السورة مسائل نبرزها في ستة مباحث:

المبحث الأول
تعريف الإسلام والإيمان وأركانهما

أولاً: تعريفهما:

الإسلام لغة: من الاستسلام. يقول أهل اللغة: أسلم الرجل إذا استسلم، ودخل في دين الإسلام وأخلص الدين لله[(١)]. وانقاد له في كل ما قدر وقضى[(٢)]، واستسلمنا: دخلنا في السلم، وتركنا المحاربة والقتال[(٣)].

اصطلاحًا: الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله[(٤)].

الإيمان لغة: مأخوذ من الأمن، وهو طمأنينة النفس، وهو التصديق. قال أخوة يوسف لأبيهم: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾ [يوسف: ١٧]. أي وما أنت بمصدق لنا.

إلاَّ أن الإيمان هو التصديق الذي معه أَمْنٌ[(٥)] أي طمأنينة.

وقيل الإيمان هو: الثقة وإظهار الخضوع[(٦)].

---

(١) انظر: لسان العرب ١٢/ ٢٨٩، المعجم الوسيط ص٤٤٦، وغريب الحديث للخطابي ٢/ ٤١١.

(٢) التعاريف ص٥٧.

(٣) جامع البيان ٢١/ ٣٩٢.

(٤) انظر: مجموع الفتاوى ٥/ ٢٣٩، عقيدة الفرقة الناجية ص١٧، واقتضاء الصراط المستقيم ٢/ ٣٧٨، وحاشية الأصول الثلاثة ص٦٤.

(٥) المفردات في غريب القرآن ص٢١ مادة (أمن).

(٦) القاموس المحيط ص١٥١٨.

اصطلاحًا: قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالأركان، يزيد بالطاعة وينقص بالعصيان[١].

ثانيًا: أركان الإسلام والإيمان:

أركان الإسلام والإيمان قد جمعهما حديث جبريل المشهور عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: "بينما نحن جلوس عند رسول الله، إذ دخل علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام؟ فقال رسول الله ﷺ: «**أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا**». قال صدقت، قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه.

قال فأخبرني عن الإيمان؟ قال: «**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، قال: صدقت،....**») الحديث"[٢].

فنصّ على أركان الإسلام الخمسة، وأركان الإيمان الستة.

وقد جمع الله تعالى بين أركان الإيمان وأركان الإسلام في قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

---

(١) كتاب الإيمان لشيخ الإسلام ص٢٤٩.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى (٨).

فذكر الله تعالى خمسة أركان في هذه الآية وهي: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ وسادسها الإيمان بالقدر في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩، ٥٠].

وأركان الإسلام أشار إليها في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ وهو الركن الأول وهو يستلزم النطق بذلك الإيمان.

أما الصلاة فقوله تعالى: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾.

والزكاة: ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

وقد جمع الثلاثة في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة ٥].

ودليل الصوم قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

ودليل الحج قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

المبحث الثاني
الإسلام والإيمان يجتمعان ويفترقان

قال تعالى: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

"يخبر تعالى عن مقالة الأعراب، الذين دخلوا في الإسلام في عهد رسول الله ﷺ، دخولًا من غير بصيرة، ولا قيام بما يجب ويقتضيه الإيمان، أنهم ادعوا مع هذا وقالوا: ﴿ ءَامَنَّا ﴾ أي: إيمانًا كاملًا مستوفيًا لجميع أموره -هذا موجب هذا الكلام- فأمر الله رسوله أن يرد عليهم، فقال: ﴿ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ ﴾ أي: لا تدّعوا لأنفسكم مقام الإيمان -ظاهرًا وباطنًا- كاملًا.

﴿ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا ﴾ أي: دخلنا في الإسلام، واقتصروا على ذلك"[1].

"فهؤلاء مسلمون، وليسوا بمؤمنين؛ لأنهم ليسوا ممن باشر الإيمان قلبه، فذاق حلاوته وطعمه، وهذا حال أكثر المنتسبين إلى الإسلام. وليس هؤلاء كفارا؛ فإنه سبحانه أثبت لهم الإسلام بقوله: ﴿ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا ﴾"[2].

"لو حل الإيمان في القلوب لتأثر منه البدن، وظهر عليه مصداقه من الأعمال الصالحة، والبعد من ركوب المناهي، فإن لكل حق حقيقة، ولكل دعوى شاهد"[3].

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٨٠٢.

(٢) مدارج السالكين ٣/ ٩٢.

(٣) محاسن التأويل ٨/ ٥٤١.

وفي معنى الآية "ثلاثة أوجه:

أحدها: أنهم أقروا ولم يعملوا، فالإسلام قول والإيمان عمل.

الثاني: أنهم أرادوا أن يتسموا باسم الهجرة قبل أن يهاجروا فأعلمهم أن اسمهم أعراب.

الثالث: أنهم مَنُّوا على رسول الله ﷺ بإسلامهم فقالوا: "أسلمنا ولم نقاتلك" فقال الله تعالى لنبيه: قل لهم: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ خوف السيف؛ لأنهم آمنوا بألسنتهم دون قلوبهم، فلم يكونوا مؤمنين، وتركوا القتال فصاروا مستسلمين لا مسلمين"[(١)].

"**والسبب في ذلك أنه:** ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وإنما آمنتم خوفًا، أو رجاء، أو نحو ذلك، مما هو السبب في إيمانكم، فلذلك لم تدخل بشاشة الإيمان في قلوبكم"[(٢)].

وفي قوله: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي: "ولما يدخل العلم بشرائع الإيمان وحقائق معانيه في قلوبكم"[(٣)] "وقت هذا الكلام، الذي صدر منكم فكان فيه إشارة إلى أحوالهم بعد ذلك، فإن كثيرًا منهم مَنَّ الله عليهم بالإيمان الحقيقي، والجهاد في سبيل الله.

﴿وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بفعل خيرٍ أو ترك شرٍ. ﴿لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾ "أي: لا ينقصكم منها مثقال ذرة، بل يوفيكم إياها أكمل ما تكون، لا تفقدون منها صغيرًا ولا كبيرًا"[(٤)].

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٣٧.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص٨٠٢.

(٣) جامع البيان ٢١/ ٣٩٢.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣٣٨، تيسير الكريم الرحمن ص٨٠٢.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: "غفور لمن تاب إليه وأناب، رحيم به حيث قبل توبته."[١].

ويطلق الإيمان ويراد به الإسلام تارة، كما قال النبي ﷺ: «**يدخل أهل الجنة الجنة وأهـل النار النار، ثم يقول الله تعالـى: أخرجوا من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان، فيخرجون منها قد اسودوا، فيلقون في نهر الحيا أو الحياة** -شك مالك- **فينبتون كما تنبت الحبة في جانب السيل، ألم تر أنها تخرج صفراء ملتوية؟**»[٢].

ويطلق الإسـلام ويراد به الإيمان تارة كما قال ﷺ: «**المسـلم من سلم المسلمون من لسـانه ويده**»[٣]، علمًا بأنه نص في حديث آخر علـى أن كف الأذى من الإيمان كما قال عليه الصلاة والسلام: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره**»[٤].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٨٠٢.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب تفاضل أهل الإيمان في الأعمال (٢٢).

(٣) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده (١٠)، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان تفاضل الإسلام وأي أموره أفضل (٤٠).

(٤) صحيـح مسـلم، كتاب الإيمـان، باب الحث على إكـرام الجار والضيف ولزوم الصمـت إلا عن الخير وكون ذلك كله من الإيمان (٤٧).



المبحث الثالث

مسألة زيادة الإيمان ونقصانه[١]

لقد بين العلماء هذه المسألة في مواضع من الدراسات العقدية، وملخصها[٢] في نقاط:

- إذا أفرد الإيمان أو الإسلام فلا فرق بينهما، بل كل منهما يشمل الدين كله.
- وإذا اجتمع لفظ الإسلام والإيمان في نص، فلكل منهما معنى، فيدل الإسلام على الأعمال الظاهرة -وهي أركان الإسلام الخمس- ويدل الإيمان على الأعمال القلبية -وهي أركان الإيمان الست- وذلك كما في حديث جبريل السابق. وهذه هي القاعدة التي ذكرها العلماء: [الإسلام والإيمان إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا].
- يفسر الإسلام بالاستسلام لله بالقلب مع الأعمال الظاهرة[٣].
- **كل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمنًا:** فإن المسلم قد يكون مؤمنًا في بعض الأحوال ولا يكون مؤمنًا في بعضها، والمؤمن مسلم في جميع الأحوال، فالإيمان أعم من الإسلام، فاسم المؤمن المطلق يقع على من قام بالدين ظاهرًا وباطنًا، وما يترتب عليه من: الرفعة في الدرجات، ورضى الله عنه، والقرب منه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، كما في الآية بشأن الأعراب.

---

(١) انظر الأقوال في المسألة: عند ابن رجب في شرحه على البخاري فقد جمع جمعًا طيبًا في كتاب الإيمان، باب إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة وكان على الاستسلام أو الخوف من القتل ح(٢٧)، وكذلك فتح الباري ١/ ١٠٣، والمحرر الوجيز ١٣/ ٥١٦-٥١٠.

(٢) المسألة ملخصة من كتاب معارج القبول ص١٨٧.

(٣) مجموع الفتاوى ٧/ ٢٦٥.

❑ **واسم المسلم يقع على كل:** من نطق بالشهادتين، ولم يظهر منه ما يناقضهما، فيُحكم له بالإسلام ظاهرًا، والله يتولى السرائر، ويترتب على ذلك: حفظ نفسه وماله، ويعامل معاملة المسلمين في كل شيء، ويبعده عن الخلود في النار، وهذا هو الفرق العملي الذي نستفيده من تفريق الله تعالى بين اللفظين في الآية.

❑ والإنسان أول ما يكون مسلمًا، ثم يرتقي في درجات الإيمان حسب قربه من ربه جلّ وعلا والقيام بما أوجب عليه، ويزيد أكثر وأكثر بالقيام بالنوافل والسنن بعد الواجبات حتى يصل إلى درجة الإحسان، كما يستفاد ذلك من قوله: ﴿ وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ ﴾.

❑ ولا يمنع ذلك أن يكون مؤمنًا الإيمان الإجمالي بأركان الإيمان، فهو إن لم يؤمن بذلك فهو بعيد عن الإسلام، فكيف يطيع الله وهو لا يؤمن به أو باليوم الآخر أو برسله أو ملائكته أو القدر؟! فالمسلم مؤمن إيمانًا مجملًا بهذه الأركان ويزداد إيمانه بها أكثر وأكثر كلما قرب من الله -جل وعلا-.

ومنه قوله تعالى: ﴿ لِيَسۡتَيۡقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗا ﴾ [المدثر: ٣١]، وقوله تعالى: ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗىۗ ﴾ [مريم: ٧٦]. وقوله: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٤].

وعلى هذا فإن الإيمان بالله على مراتب يرتقي فيها العبد:

المرتبة الأولى: الإيمان المانع من الخلود في النار ويسمى: [أصل الإيمان أو مطلق الإيمان].

وحقيقته: التزام العبودية لله تعالى وحده، وإفراده بالطاعة والانقياد -وإن أخل بالواجبات وقارف السيئات ما دام مجتنبًا للمكفرات-

المرتبة الثانية: الإيمان المانع من دخول النار ويسمى: [الإيمان الواجب أو الإيمان المطلق].

وحقيقته: يتضمن مطلق الإيمان وزيادة فعل جميع الواجبات وترك المحرمات، وهذا كماله الواجب.

المرتبة الثالثة: وهي أعلى المراتب: الإيمان المرقّي لصاحبه في درج الجنان ويسمى: [الإيمان المستحب، أو الإيمان الكامل].

وحقيقته: تحقيق الإيمان المطلق مع الازدياد من فعل المستحبات وتمام اجتناب المكروهات.

وهذه المراتب يدل عليها قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [فاطر ٣٢].

و"لما كانت هذه الأمة أكمل الأمم عقولًا وأحسنهم أفكارًا، وأرقهم قلوبًا، وأزكاهم أنفسًا، اصطفاهم الله تعالى، واصطفى لهم دين الإسلام، وأورثهم الكتاب المهيمن على سائر الكتب، ولهذا قال: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ وهم هذه الأمة. ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾ بالمعاصي، التي هي دون الكفر. ﴿ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾ مقتصر على ما يجب عليه، تارك للمحرم. ﴿ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ أي: سارع فيها واجتهد، فسبق غيره، وهو المؤدي للفرائض، المكثر من النوافل، التارك للمحرم والمكروه.

فكلهم اصطفاه اللّه تعالى، لوراثة هذا الكتاب، **وإن تفاوتت مراتبهم**، وتميزت أحوالهم، فلكل منهم قسط من وراثته، حتى الظالم لنفسه، فإن ما معه –من أصل

الإيمـان، وعلـوم الإيمـان، وأعمال الإيمـان- من وراثـة الكتاب؛ لأن المـراد بوراثة الكتاب، وراثة علمه وعمله، ودراسة ألفاظه، واستخراج معانيه"[١].

"والاستسـلام لله والعمـل له لا يتوقف علـى هذا الإيمان الخـاص، وهذا الفرق يجده الإنسان من نفسه ويعرفه من غيره، فعامة الناس إذا أسلموا بعد كفر أو ولدوا على الإسلام والتزموا شرائعه وكانوا من أهل الطاعة لله ورسوله فهم مسلمون ومعهم إيمان مجمل، ولكن دخول حقيقة الإيمان إلى قلوبهم إنما يحصل شيئًا فشيئًا إن أعطاهم الله ذلك، وإلا فكثير من الناس لا يصلون لا إلى اليقين ولا إلى الجهاد ولو شككوا لشكوا ولـو أمـروا بالجهاد لما جاهدوا، وليسـوا كفارا ولا منافقين، بـل ليس عندهم من علم القلب ومعرفته ويقينه ما يدرأ الريب، ولا عندهم من قوة الحب لله ولرسوله ما يقدمونه علـى الأهل والمال، وهؤلاء إن عوفوا من المحنة وماتوا دخلوا الجنة، وإن ابتلوا بمن يورد عليهم شبهات توجب ريبهم: فإن لم ينعم الله عليهم بما يزيل الريب، وإلا صاروا مرتابين وانتقلوا إلى نوع من النفاق.

ولهذا لما قدم النبي ﷺ المدينة أسـلم عامـة أهلها، فلما جاءت المحنة والابتلاء نافق من نافق[٢] فلو مات هؤلاء قبل الامتحان لماتوا على الإسـلام ودخلوا الجنة ولم يكونـوا مـن المؤمنين حقًـا الذين ابتلوا فظهـر صدقهم؛ قال تعالـى: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ [العنكبـوت: ٢، ٣] وقـال تعالـى: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ [آل عمـران: ١٧٩] وقـال: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٦٨٩.

(٢) وقـد ظهر ذلك في عدد من مواقف السـيرة كما في غزوة أحـد والخندق وقصة الإفك وغزوة تبوك ووفاة النبي ﷺ...وغيرها.

خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ [الحج: ١١]"[١].

مسألة: هل يجوز للإنسان أن يقول: أنا مؤمن؟

"كره أكثر السلف أن يطلق الإنسان على نفسه أنه مؤمن، وقالوا: هو صفة مدح، وتزكية للنفس بما غاب من أعمالها؛ وإنما يشهد لنفسه بالإسلام لظهوره"[٢].

"فأهل السنة يجيزون الاستثناء في الإيمان المطلق إذا كان خوفًا من تزكية النفس وورعًا، ويمنعونه في مطلق الإيمان لكونه ترددًا وشكًا"[٣][٤].

---

(١) مجموع الفتاوى ٧/ ٢٧١.

(٢) فتح الباري لابن رجب، كتاب الإيمان، باب إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة وكان على الاستسلام أو الخوف من القتل ح (٢٧).

(٣) درة البيان في أصول الإيمان د. محمد يسري ص٢٢، وانظر: شرح الطحاوية ص٣٥١، فقد فصل في المسألة وذكر الأقوال.

(٤) وللاستزادة حول مسائل الإيمان يراجع كتاب الإيمان لشيخ الإسلام، ضمن مجموع الفتاوى.

المبحث الرابع
حقيقة الأعراب في الآية

⌑ أولاً: تعريف الأعراب:

الأعراب في الأصل: اسم لبادية العرب، وكل أمة لها حاضرة وبادية، فبادية العرب الأعراب، وقد حدد القرآن الكريم معنى الأعراب: أنهم أهل البادية البعيدين عن العلم ومواطن الرسل، قال تعالى: ﴿ ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ [التوبة: ٩٧].

ولما دخل سلمة بن الأكوع رضي الله عنه "على الحجاج فقال: يا ابن الأكوع ارتددت على عقبيك تعربت[١]؟ قال: لا، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن لي في البدو"[٢].

وعلى ذلك فالأعراب هم: "سكان البادية خاصة، الذين يتتبعون مساقط الغيث ومنابت الكلأ"[٣].

⌑ ثانيًا: أسباب وقوعهم فيما ذكر الله:

قال تعالى: ﴿ ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ [التوبة: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿ وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مُنَٰفِقُونَ ﴾ [التوبة: ١٠١]. "لما ذكر عز وجل أحوال المنافقين بالمدينة، ذكر من كان خارجًا منها ونائيًا عنها من الأعراب، فقال كفرهم أشد؛ لأنهم أبعد عن معرفة السنن، أو لأنهم أقسى قلبًا

---

(١) **التَّعَرُّب:** الإقامة في البادية والسكنى مع الأعراب. انظر: النهاية في غريب الحديث ٣/ ٢٠٢.

(٢) صحيح البخاري كتاب الفتن باب التعرب في الفتنة ٨/ ٩٤.

(٣) المعجم الوسيط ص٥٩٠.

وأجفى قولًا، وأغلظ طبعًا، وأبعد عن سماع التنزيل"[١].

فصفة النفاق يزول الحكم بزوالها ويوجد الذم بوجودها، فلو نافق غير الأعراب وصلح الأعراب؛ تعلق الذم بمن نافق وارتفع حكم الذم عن الأعراب، كما في حديث آخر الزمان، في قول النبي ﷺ: «**يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شغف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن**»[٢]. "وإنما جاء بذكر الشعاب والجبال واتباع الغنم؛ لأن ذلك هو الأغلب في المواضع التي يعتزل فيها الناس فكل موضع يبعد عن الناس فهو داخل في هذا المعنى -مثل اسم الاعتكاف في المساجد، ولزوم السواحل للرباط والذكر، ولزوم البيوت فرارا عن شرور الناس- لأن من نأى عنهم سلموا منه وسلم منهم؛ لما في مجالستهم ومخالطتهم من الخوض في الغيبة واللغو وأنواع اللغط، وبالله العصمة والتوفيق لا رب غيره"[٣].

⌑ ثالثًا: ليس كل الأعراب مذمومين:

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٩٩].

"هذا هو القسم الممدوح من الأعراب، وهم الذين يتخذون ما ينفقون في سبيل الله قربة يتقربون بها عند الله، ويبتغون بذلك دعاء الرسول لهم"[٤]. فبينت الآية بالنص الصريح أنه "ليس الأعراب كلهم مذمومين، بل منهم: ﴿مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾

(١) الجامع لأحكام القرآن ٨/ ٢٣١ باختصار.
(٢) صحيح البخاري كتاب الإيمان باب الفرار بالدين (١٩).
(٣) التمهيد ١٧/ ٤٥٠.
(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/ ٢٠٢.

فيسلم بذلك من الكفر والنفاق، ويعمل بمقتضى الإيمان؛ فيحتسب نفقته ويقصد بها وجه اللّه تعالى والقرب منه؛ ويجعلها وسيلة لدعاء الرسول لهم، و﴿ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓ ﴾ في جملة عباده الصالحين.

وفي هذه الآية دليل على:

- أن الأعراب كأهل الحاضرة، منهم الممدوح ومنهم المذموم، فلم يذمهم اللّه على مجرد تعربهم وباديتهم، إنما ذمهم على ترك أوامر اللّه، وأنهم في مظنة ذلك.

- وأن الكفر والنفاق يزيد وينقص ويغلظ ويخف بحسب الأحوال.

- وأن فاقد العلم أقرب إلى الشر ممن يعرفه؛ لأن اللّه ذم الأعراب، وأخبر أنهم أشد كفرًا ونفاقًا، وذكر السبب الموجب لذلك، وأنهم أجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل اللّه على رسوله.

⌑ رابعًا: لماذا نفى الله الإيمان وأثبت الإسلام في هذه الآيات؟

"فالقول الراجح من أقوال العلماء في حقيقة إسلام هؤلاء الأعراب: أنه إسلام يخرجهم من الكفر إلى الإيمان، وهم يثابون عليه، وهو يكفل لهم عصمة أموالهم ودمائهم وعدم الخلود في النار. ولكن هذا الإيمان ناقص؛ لأنهم لم يستكملوا شروط الإيمان.

فللإيمان شروط إذا تحققت تبين صدق الإيمان ورسوخه في القلب[١]، فهم مؤمنون ناقصون في إيمانهم وفي إيمانهم ضعف. فهؤلاء الأعراب عندما قصروا فيما فرض الله عليهم من الجهاد وطاعة الرسول ﷺ، وحصل عندهم من الريب ما أضعف من إيمانهم بالله تعالى، خاطبهم الله أنهم ليسوا بمؤمنين إيمانًا كاملًا بالله تعالى كما دلت عليه الآيات"[٢].

---

(١) سيأتي بيان هذه الشروط في الفصل القادم.

(٢) سورة الحجرات دراسة تحليلية وموضوعية ص٣٥٥ بتصرف.

المبحث الخامس
صفات المؤمنين التي أمر اللّٰه تعالى بها

للمؤمنين باللّٰه تعالى صفات يجب أن تكون فيهم لكي يكونوا أهلًا لهذا الوصف الرباني:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾.

هذه آية كلماتها معدودة، ولكنها تضمنت ثلاث جمل وخاتمة، لا يمكن لبشر مهما كان أن يأتي بما حوته من معانٍ لطيفةٍ وشاملةٍ ومحكمةٍ، بألفاظٍ لآلئ، تجذب الأذن والقلب؛ من حسنها وتمام وصفها، فسبحان الله، ما أعظم شأن كلامه!!

التعبير على هذا النحو ينبه القلوب المؤمنة إلى مزالق الطريق، وأخطار الرحلة، لتعزم أمرها، وتحتسب، وتستقيم، ولا ترتاب عندما يدلهم الأفق، ويظلم الجو، وتناوحها العواصف والرياح!

فالمتصفون بهذه الصفات هم الصادقون في عقيدتهم، الصادقون حين يقولون: إنهم مؤمنون، فإذا لم تتحقق تلك المشاعر في القلب، ولم تتحقق آثارها في واقع الحياة، فالإيمان لا يتحقق، والصدق في العقيدة وفي ادعائها لا يكون.

وبيان هذه الصفات بالتفصيل في ثلاثة مطالب:

المطلب الأول

الإيمان الكامل بالله وبرسوله ﷺ

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

"إن الإيمان الكامل بالله تعالى يحصل بعدة أمور:

١- الإيمان بوجود الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

٢- الإيمان أن الله تعالى وحده هو الرب وأنه منفرد بالربوبية، وهو الخالق المالك المدبر.

٣- الإيمان بانفراده سبحانه بالألوهية، وأنه لا إله إلا هو ولا شريك معه في العبادة.

٤- الإيمان بأسماء الله وصفاته كما أثبتها هو سبحانه لنفسه في كتابه أو في سنة نبيه ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل"[1].

٥- التعبد لله ﷻ فيما أمر ونهى، وفيما قدر وقضى فيسلم لله وحده.

٦- لا يقدم على قول الله وشرعه رأيًا ولا قولًا بل يخضع لله وحده.

"**ويتحقق الإيمان الكامل برسول الله ﷺ بأمور، منها:**

١- تصديقه فيما أخبر قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٣]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤].

٢- طاعته فيما أمر، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

---

(١) شرح الأربعين النووية ابن عثيمين ص٣٤.

٣- اجتناب ما نهى عنه وزجر، قال تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾ [الحشر: ٧].

٤- لا يقدم قول أحد من البشر على قول النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾.

٥- لا يبتدع في دين الله ما لم يأت به الرسول -سواء كان في عقيدة، أو قول، أو فعل- قال ﷺ: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**»[١].

٦- التأدب مع النبي ﷺ بكل صوره، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾[٢].

المطلب الثاني
عدم الشك والريبة في دين الله

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ ﴾.

"وإنما انتفى عنهم الريب؛ لأن الإيمان قد باشر قلوبهم وخالطتها بشاشته، فلم يبق للريب فيه موضع. وصدق ذلك الذوق بذلهم أحب شيء إليهم في رضى ربهم تعالى، وهو أموالهم وأنفسهم، ومن الممتنع حصول هذا البذل من غير ذوق طعم الإيمان ووجود حلاوته؛ فإن ذلك إنما يحصل بصدق الذوق والوجد"[٣].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود (٢٦٩٧). ومسلم، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور (١٧١٨).

(٢) شرح الأربعين النووية ابن عثيمين ص٣٥.

(٣) مدارج السالكين ٣/ ٩١.

قال القاشاني: "يشير إلى الإيمان المعتبر الحقيقيّ، وهو اليقين الثابت في القلب المستقر الذي لا ارتياب معه، لا الذي يكون على سبيل الخطرات، فالمؤمنون هم الموقنون الذين غلبت ملكة اليقين قلوبهم على نفوسهم، ونورتها بأنوارها، فتأصلت فيها ملكة القلوب حتى تأثرت بها الجوارح، فلم يمكنها إلا الجري بحكمها، والتسخر لهيأتها"[١].

وبيان ذلك في النقاط التالية:

◈ أولاً: اليقين من شروط الإيمان:

"ذكر علماء السنة أن من شروط لا إله إلا الله **اليقين المنافي للشك**"[٢].

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ [التوبة: ٤٥].

وتوضيح هذا الشرط: "بأن يكون مستيقنًا بمدلول هذه الكلمة يقينًا جازمًا؛ فإن الإيمان لا يغني فيه إلا علم اليقين لا علم الظن، فالله تعالى اشترط في إيمانهم كونهم لم يرتابوا، أي لم يشكوا، فأما المرتاب فهو من المنافقين والعياذ بالله"[٣].

ونقف مع الاستثناء: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ ﴾ "ففيه إشارة إلى ما قد يحدث للنفس المؤمنة تحت تأثير التجارب القاسية والابتلاءات الكثيرة من ارتياب واضطراب، وإن النفس المؤمنة لتصطدم في الحياة بشدائد تزلزل،

(١) محاسن التأويل، القاسمي ٨/ ٥٤٤.

(٢) نواقض الإيمان الاعتقادية ٢/ ٦٩.

(٣) معارج القبول ١/ ٣٧٨-٣٧٩.

ونوازل تزعزع، والنفس التي تثبت فلا تضطرب، وتثق فلا ترتاب، وتظل مستقيمة هي التي تستحق هذه الدرجة عند الله.

والتنبيه على هذا النحو ينبه القلوب المؤمنة إلى مزالق الطريق، وأخطار الرحلة، لتعزم أمرها، وتحتسب وتستقيم، ولا ترتاب عندما يَدْلَهِمّ الأفق، ويظلم الجو وتناوحها العواصف والرياح، قال تعالى: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢، ٣].

"فمن شك في الله أو في رسوله وما جاء به عن الله فهو كافر، لا شهادة له ولا إيمان؛ فالشك نقيض الإيمان،" وهو التردد بين شيئين[١]، كالذي لا يجزم بصدق الرسول ﷺ ولا بكذبه، ولا يجزم بوقوع البعث ولا عدم وقوعه..."[٢][٣].

الفرق بين الشك والوسوسة:

"الوسوسة هي مما يهجم على القلب بغير اختيار الإنسان، فإذا كرهه العبد ونفاه كانت كراهته صريح الإيمان"[٤] أما الشاك فيما جاء به الرسول فهو تارك للإيمان الذي لا نجاة ولا سعادة إلا به[٥].

والفرق الدقيق بين الشك والريب: أن "الريب يكون في عِلْم القلب وفي عَمَل القلب، بخلاف الشك فإنه لا يكون إلا في العلم، ولهذا لا يوصف باليقين إلا من اطمأن قلبه علمًا وعملًا"[٦].

(١) انظر: لسان العرب ١٠/ ٤٥١.

(٢) الضياء الشارق لسليمان بن سمحان ص٣٧٤.

(٣) للاستزادة حول هذا الموضوع يمن مراجعة كتاب نواقض الإيمان الاعتقادية لمحمد بن عبدالله الوهيبي ٢/ ٦٩-٧٣.

(٤) الضياء الشارق ص٣٧٤.

(٥) نواقض الإيمان الاعتقادية ٢/ ٧٣.

(٦) مجموع الفتاوى ١٤/ ١٠٨.

ثانيًا: علامات اليقين وآثارها على الفرد والمجتمع:

من الأمور التي يثمرها اليقين في سلوك العبد:

اليقين إذا وصل إلى قلب الإنسان؛ امتلأ قلبه نورًا وإشراقًا، وانتفى عنه أضداد ذلك من الشكوك والريب والشبهات التي تقلقه:

١- "**فيكون القلب مستريحًا مطمئنًا،** فيرتفع عنه السخط والهم والغم الذي يجلبه الشك والريب، فيمتلأ قلبه محبة لله، وخوفًا منه، ورضًا به، وشكرًا له، وتوكلًا عليه، وإنابة إليه"(١).

٢- **الهدى والفلاح في الدنيا والآخرة**(٢)، قال الله ﷻ عن المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٤، ٥].

٣- **الزهد في الدنيا وقصر الأمل:** فلا تتعلق نفسه بها وإنما يكون زاهدًا فيها؛ لأنه يعلم أنها ليست موطنًا له وأنه فيها كالمسافر يحتاج إلى مثل زاد الراكب.

٤- **الانتفاع بالآيات والبراهين**(٣)، قال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات: ٢٠].

٥- **الصبر،** فلا يمكن للعبد أن يصبر إن لم يكن له ما يطمئن له، ويتنعم به، ويغتذي به، وهو اليقين(٤) كما قال الله ﷻ: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠].

---

(١) مدارج السالكين ٢/ ٤١٣.

(٢) زاد المعاد ٤/ ٢١٥.

(٣) مدراج السالكين ٢/ ٣٩٧.

(٤) الاستقامة ٢/ ٢٦١.

٦- الرضـا بما قدر الله ﷻ: فلا يمكن أن تثبـت قدم الرضا إلا على قاعدة اليقين، فمـن لا يقيـن عنـده لا يمكـن أن يرتقـي إلـى درجـة الرضا بمـا قـدر الله ﷻ عليه من والمصائـب والمحـن ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [التغابن: ١١].

٧- أن البلاء يصير عند من اسـتكمل اليقين نعمة، والمحنة منحة؛ قال سـفيان بن عيينة: "من لم يَعُدّ البلاء نعمة فليس بفقيه"[(١)].

٨- التوكل على الله ﷻ قال: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾ [النمل: ٧٩]. والحق هنا هو اليقين[(٢)].

٩- أنه يحمل صاحبه على مباشـرة الأهوال، وركـوب الأخطار، ولكن العلم من غيـر اليقين قد يحمل صاحبه على التأخر والنظر في حسـابات كثيـرة من نواحٍ متعددة، فتفوت صاحبه الفرص[(٣)].

١٠- اليقين إذا تزوج بالصبر فإنه يولد بينهما الإمامة في الدين، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السـجدة: ٢٤]. فالصـبر هـو لقاح اليقين[(٤)].

١١- أنه يحمل أصحابه على الجد في طاعة الله ﷻ والتشمير والمسارعة والمسابقة في الخيرات؛ فقد علموا طول الطريق وقلة المقام في منزل التزود، فسـارعوا في الجهاز، وجدّ بهم السير إلى منزل الأحباب، فقطعوا المراحل، وطووا المفاوز[(٥)].

---

(١) مفتاح دار السعادة ١/ ١٥٤.

(٢) مدارج السالكين ٢/ ٣٩٨.

(٣) بصائر ذوي التمييز ٥/ ٤٠٠.

(٤) مدارج السالكين ٢/ ١٩٦.

(٥) مفتاح دار السعادة ١/ ١٤٩.

١٢- أنه يجعل صاحبه ثابتًا على الحق الذي اتبعه وعرفه، ولهذا فإن أهل الحق هم أكثر الناس ثباتًا، قال شيخ الإسلام: "وأما أهل السنة: فما يعلم أحد من علمائهم ولا صالح عامتهم رجع قط عن قوله، أو اعتقاده، بل هم أعظم الناس صبرًا على ذلك -وإن امتُحنواْ بأنواع المحن، وفُتنواْ بأنواع الفتن- وهذه حال الأنبياء وأتباعهم من المتقدمين، كأهل الأخدود، ونحوهم"(١).

١٣- الثبات أمام الأعداء حتى النصر أو الشهادة: لما أمر الله موسى عليه السلام بالانطلاق في بني إسرائيل، ولم يجد إلا البحر أمامه، وتردد من تردد ممن كان معه، وقالوا: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١]. قال موسى عليه السلام بكل ثبات: ﴿قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢]، فأمره الله عز وجل بأن يضرب البحر بعصاه، فضربه، فانفلق، فكان كل فوق كالطود العظيم.

١٤- أن صاحبه لا يعرف اليأس مهما طال ليل الظالمين ومهما امتد الظلام؛ فإن بعد الليل انفلاق الفجر ولا محالة، فأهل اليقين: يصبرون، ويثبتون، ويفعلون ما في وسعهم، وطاقتهم.

١٥- أن أعمال أهله الصالحة تكون راجحة في الموازين عند الله تبارك وتعالى.

والمقصود: أن اليقين يورث صاحبه أمورًا جليلة عظيمة، ويؤثر في سلوكه فوائد جمة: فهو يزيد العبد المسلم قربة من الله عز وجل وحبًّا، ورضًا بما قدره وقضاه، وهو لُبُّ الدين، ومقصده الأعظم، ويزيد صاحبه استكانة وخضوعًا لربه وخالقه جل جلاله، كما أنه يكسبه رفعة، وعزة، ويبعده عن مواطن الذل والضعة، وهو -أيضًا- باليقين يتبع النور، والحق المبين، ويسلك طريق السلامة المحققة، فلا يحيد عنها -بضعف يقينه-

---

(١) مجموع الفتاوى ٤/ ٥٠.

رغبـة أو رهبة، كما أنه يحمل صاحبه دائمًا على الإخلاص والصدق، وتحري ذلك في كل أعمالـه، كما أنه -أيضًا- يضبط العلاقة بين العبـد وبين الرب، ويجعل العبد يلتزم الإخلاص، والصدق، والمراقبة، وفعل ما يليق، وترك ما لا يليق في تعامله مع ربه؛ لأنه يعلم أن ذلك يوصله إلى دار الأمان، ولا سبيل إلى الوصول إلا بسلوك هذه الطريق[(١)].

وتجدر الإشارة إلى أن ضعف اليقين عند بعض الدعاة أورثهم في زمن الفتن -كزماننا- النكوص والرجوع والتنازل عن مبادئ من هذا الدين، نسأل الله العافية والسلامة.

◈ ثالثًا: أنواع الشك وأثره على الفرد والمجتمع:

◆ أنواع الشك:

١- **الشـك الواقـع في ذات الله**، قـال تعالـى: ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [إبراهيم: ١٠].

٢- **الشـك في الرسـل والرسـالة**، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ [إبراهيم: ٩].

٣- **الشك في اليوم الآخر وما فيه من بعث وحساب**، قال تعالى: ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ [النمل: ٦٦].

٤- **الشـك في وعـد الله تعالـى بالنصـر والتمكيـن للمؤمنين**، قـال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ [التوبة: ٤٥].

(١) هذا الموضوع مختصر من سلسلة أعمال القلوب للشيخ د. خالد السبت.

◆ **أثر الشك والريب على الفرد والمجتمع:**

١- "الشك يضعف الإيمان بالله ﷻ وبالملائكة والكتاب والنبيين واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره.

٢- يدخل الوساوس في القلب فلا يجعله يثبت على يقين.

٣- الريب والشك والوسواس آفات نفسية تجعل الثقة مهزوزة بين أفراد المجتمع.

٤- المصاب بداء الشك مريض في نفسه لا يستطيع أن يثبت في حال من الأحوال.

٥- الشك في الله شرك أكبر.

٦- الشك سمة ضعف الإنسان، وقوة الشيطان عليه.

٧- الاستكانة للشك تجلب التهم.

٨- الشك يجلب إساءة الظن بأقرب الناس"[(١)].

٩- "فالريب والشك والتردد، يورث قلقًا في القلب، وضجرًا وألمًا، والشاك المرتاب يحصل له من ألم القلب ما الله به عليم"[(٢)].

◈ **رابعًا: كيفية زيادة اليقين:**

إذا عمل الإنسان على زيادة إيمانه ويقينه بالله وبشرعه قضى على الشك، فكيف نصل بأنفسنا إلى اليقين؟ كيف نتربى على اليقين؟ كيف نرتقي بإيماننا إلى هذه المرتبة؟

من أعظم الوسائل في ذلك: أن نعلم أن التوفيق والمواهب بيد الله ﷻ، فما على العبد إلاّ أن يلجأ إليه، وأن يصدق في الإقبال عليه، فيسأل ربه قائمًا قاعدًا، أن: يرزقه

---

(١) نضرة النعيم ١٠/ ٤٧٦٨.

(٢) إغاثة اللهفان ١/ ١٩-٢٠.

الإيمان الكامل، واليقين الجازم الراسخ الذي لا يتزعزع[(١)].

ومع ذلك يبذل الأسباب التي توصله إلى هذه المرتبة، ومنها:

١ـ العلم:

فأن تعمل بمقتضى هذا العلم، يحملك إلى اليقين؛ كما قال بعض السلف: "العلم يستعملك -فتعمل بمقتضاه- واليقين يحملك"[(٢)].

وهذا العلم الذي يحتاج إليه العبد ليصل إلى مرتبة اليقين يشمل العلم بالله ﻷ، فإذا عرف العبد ربه معرفةً صحيحة بأسمائه وصفاته، فإن قلبه ينشرح بذلك، ويطمئن إلى ربه أنه كامل من كل وجه.

وهذا العلم -كما أنه علم بالرب المعبود- هو أيضًا علم بالنفس وبالخلق، فيعلم قدر نفسه وضعفه وعجزه -فلا يركن إلى نفسه، ولا يركن إلى المخلوقين- وغيرها من العلوم.

٢ـ دفع الواردات والخواطر والأمور المنافية له:

ولهذا كان جهاد الشيطان على مرتبتين اثنتين:

جهاده فيما يُلقيه من الشبهات والوساوس والخواطر المزعزعة لليقين، فهذا لا يسلم منه إلا إذا دفعه العبد، وجاهد هذا الشيطان بدفع هذه الخواطر والوساوس والشُبه، فلا يقرأ في كتب الشُبه، ولا يناقش أهل الشُبه، ولا يسمع منهم، ولا يجعل قلبه عرضة لكل آسرٍ وكاسرٍ وقاطع طريق، فقد يدخل فيه شيء ولا يخرج منه. فإذا دفع العبد الشُبه عن قلبه، والشكوك والوساوس؛ فإن ذلك يورثه يقينًا.

---

(١) أعمال القلوب خالد السبت ١/ ١٨٦.

(٢) مفتاح دار السعادة ١/ ١٥٤.

كما أنه إذا جاهد الشيطان في باب الشهوات؛ فإن ذلك يُورثه صبرًا[١] ولهذا كانت الإمامة في الدين تُنال بالصبر واليقين، فالصبر يدفع الشهوات والإرادات الفاسدة، واليقين يدفع الشكوك والشبهات.

٣- العزم الجازم الذي لا تردد فيه في العمل بمرضاة الله ﷻ:

فيُقدم العبد على ذلك من غير نظرٍ في الحسابات، فالذي يجلس قبل أن يتوب، وقبل أن يُصحح العمل، أو قبل أن يتصدق، أو قبل أن يصوم يومًا في سبيل الله ﷻ يحسب الأرباح والخسائر، قد لا يعمل، وقد لا يتوب، وقد تفوته فرصة الحياة، وهو لم يتقرب إلى الله ﷻ كثيرًا، وإنما العبد بحاجة إلى الإقدام والجزم، ولهذا قال بعض أهل العلم: "الاهتمام بالعمل يورث الفكرة، والفكرة تورث العبرة، والعبرة تورث الحزم، والحزم يورث العزم، والعزم يورث اليقين، واليقين يورث الغنى -فلا يلتفت ولا يفتقر إلى أحد سوى الله ﷻ- والغنى يورث الحب، والحب يورث اللقاء"[٢].

٤- مفارقة الشهوات والحظوظ النفسانية:

فإذا كان العبد منغمسًا في شهواته، فأنى له باليقين؟! وفي هذا المعنى قولهم: "أصل التقوى مباينة النهي، وهو مباينة النفس، فعلى مفارقتهم النفس وصلوا إلى اليقين"[٣].

٥- التفكر في الأدلة التي توصل إلى اليقين:

"فكلما تواردت البراهين المسموعة، والمعقولة، والمشاهدة على قلب العبد = كان ذلك زيادة في يقينه وإيمانه، وهذا شيء مشاهد، فكثيرٌ من الأشياء التي في حياتنا

(١) كما قال شمس الدين ابن القيم في زاد المعاد ٣/ ١٠.
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب اليقين ص١٠١ رقم (٣)، عن أبي السر الباهلي.
(٣) الرسالة القشيرية ص٨٣، مدارج السالكين (٢/ ٣٩٩).

والتي نعايشها، وكثيرٌ من الأمور التي شاهدناها، والتي لم نشاهدها: تيقناها، مع أنَّ الله ﷻ قد أخرجنا من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئًا، فكيف حصّلنا اليقين فيها؟

حصّلنا هذا اليقين: إما بالمشاهدة بعد أن كان ذلك معلومًا، أو بالمشاهدة ابتداءً، أو بتوارد الأدلة، فنعلم أن هذا الأمر حقٌّ لا يقبل الجدل، وأنه شيءٌ ثابتٌ لا يقبل التشكيك، مع أنه قد يكون في نفسه باطلًا، وقد يكون لا حقيقة له"[١].

المطلب الثالث
الجهاد بالمال والنفس في سبيل الله

قال تعالى: ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾.

"أي جاهَدوا المشركين بإنفاق أموالهم، وبذل مهجهم في جهادهم، على ما أمرهم الله به من جهادهم، وذلك سبيله، لتكون كلمة الله العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى.

قال الشهاب: وقدم الأموال؛ لحرص الإنسان عليها، فإن ماله شقيق روحه[٢].

قال القاشاني: بذل المال والنفس في طريق الحق هو مقتضى اليقين الراسخ، وأثره في الظاهر[٣].

"**فالمؤمنون على الحقيقة:** الذين جمعوا بين الإيمان والجهاد في سبيله؛ فإن من جاهد الكفار دل ذلك على الإيمان التام في القلب؛ لأن من جاهد غيره على الإسلام

---

(١) أعمال القلوب للشيخ خالد السبت ١/ ١٨٩.

(٢) حاشية الشهاب على البيضاوي ٨/ ٨٢، ونقله محاسن التأويل، القاسمي ٨/ ٥٤٣.

(٣) نقله محاسن التأويل، القاسمي ٨/ ٥٤٤.

والقيام بشرائعه فجهاده لنفسه على ذلك من باب أولى وأحرى"[١].

"قصر ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ على غزو الكفار المعتدين، من باب قصر العام على أهم أفراده وأعلاها، وإلا فسبيل الله يعم العبادات والطاعات كلها؛ لأنها في سبيله وجهته"[٢].

إن الإيمان اعتقادٌ -من غير شك- وقولٌ وعملٌ، ينتج هذا الاعتقاد العمل المشار إليه في الآية: الجهاد بالنفس والمال في سبيل الله، وإنَّ القلب إذا تذوق حلاوة الإيمان واطمأن إليه وثبت عليه يندفع لإظهار حقيقته على الجوارح، ويؤثر فيما يحيط به من مجريات الأمور وواقع الحياة، ولا يطيق الصبر على المخالفة بين الإيمان الذي في حسه، والأمور الواقعية من حوله؛ لأن هذه المخالفة تؤذيه وتصدمه في كل لحظة، ولذا اقترن بالجهاد في سبيل الله بالمال والنفس، فهو انطلاق يحقق الصورة المضيئة في قلبه.

وذكر الجهاد والصدقة بالمال والنفس ليس على سبيل الحصر، بل إن الله تعالى جاء بأصعب الأعمال على النفس -وهو الجهاد الذي تزهق به النفس، والمال الذي جبلت على حبه-؛ تنبيهًا على أن الباقي من أعمال الجوارح -من صلاة وصيام وحج وزكاة وجميع شرائع الله- من باب أولى.

وأيضا تنبيهًا على أنه لا يصل إلى هذه الدرجة من التضحية بالنفس والمال في سبيل الله -لا مصالح ولا منافع لغير الله- إلا من آمن بالله وتغلغل الإيمان في قلبه حتى جعله يضحي بنفسه وبماله في سبيل رضا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنه.

والجهاد في سبيل الله بالمال والنفس عام في كل عملٍ للإسلام، فالذي يجاهد نفسه على الخير والطاعة فهو في سبيل الله، والذي يجاهد بلسانه أو بقلمه أو بماله

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٨٠٢.

(٢) محاسن التأويل ٨/ ٥٤٣.

للدعوة والتعليم فهو في سبيل الله، كما قال تعالى: ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ﴾ [الفرقان: ٥٢]، والذي يحاول أن يأخذ نفسه وغيره بأسباب النصر فهو في سبيل الله، فهذا الجهاد بكل أنواعه في سبيل الله يدل على الصدق في الإيمان، لذلك جاء ختام الآية: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ أي: الصادقون فيما قالوه إنهم مؤمنون، فإذا لم يتحقق الإيمان ولم تتحقق آثاره في واقع الحياة، فالإيمان لا يتحقق، "الصادقون الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم الجميلة، فإن الصدق دعوى كبيرة، وفي كل شيء يُدَّعى يحتاج صاحبه إلى حجة وبرهان، وأعظم ذلك دعوى الإيمان، الذي هو مدار السعادة والفوز الأبدي والفلاح السرمدي، فمن ادعاه وقام بواجباته ولوازمه فهو الصادق المؤمن حقًا، ومن لم يكن كذلك علم أنه ليس بصادق في دعواه، وليس لدعواه فائدة؛ فإن الإيمان في القلب لا يطلع عليه إلا الله تعالى، فإثباته ونفيه، من باب تعليم الله بما في القلب، وهذا سوء أدب، وسوء ظن بالله تعالى"[(١)].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٨٠٢.

المبحث السادس
علم الله تعالى بكل شيء

قال تعالى: ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾.

"الله محيط بكل شيء، عالم به، فاحذروا أن تقولوا خلاف ما يعلم من ضمائركم؛ فينالكم عقوبته، فإنه لا يخفى عليه شيء"[١].

فالله تعالى يبين في ثنايا الحديث مع الأعراب ما يُعلمهم أن الله أعلم بقلوبهم وما فيها؛ وأنه هو يخبرهم بما فيها ولا يتلقى منهم العلم عنها: ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ ﴾ "يقول الله مخاطبًا الرسول ﷺ أن يقول لهؤلاء الأعراب: أتخبرون الله بما في قلوبكم وبما في ضمائركم؟!"[٢]،"وفي ذلك تجهيل لهم، حيث ظنوا أن ذلك يخفى على الله تعالى"[٣].

والإنسان يَدَّعِي العلم، وهو لا يعلم نفسه، وما يستقر فيها من مشاعر، ولا يدرك حقيقة نفسه ولا حقيقة مشاعره ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ علمًا حقيقيًا، لا بظواهرها وآثارها، ولكن بحقائقها وماهيتها. وعلمًا شاملًا محيطًا غير محدود ولا موقوت.

---

(١) محاسن التأويل ٨/ ٥٤٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٨/ ٣٨٩).

(٣) البحر المحيط (٨/ ١١٦).



وقوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ "تذييل مقرر لما قبله، أي: مبالغ في العلم بجميع الأشياء التي من جملتها ما أخفوه من الكفر عند إظهارهم الإيمان"[(١)].

"وهذا شامل للأشياء كلها، التي من جملتها ما في القلوب من الإيمان والكفران، والبر والفجور، فإنه تعالى يعلم ذلك كله، ويجازي عليه، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر[(٢)].

ثم يخبر الله تعالى عن نفسه في ختام السورة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ أي: "الأمور الخفية فيهما، التي تخفى على الخلق، كالذي في لجج البحار، ومهامه القفار، وما جنه الليل أو واراه النهار، يعلم قطرات الأمطار، وحبات الرمال، ومكنونات الصدور، وخبايا الأمور.

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ يحصي عليكم أعمالكم، ويوفيكم إياها، ويجازيكم عليها بما تقتضيه رحمته الواسعة، وحكمته البالغة"[(٣)]، ومن لوازم ذلك أن تذعنوا له سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ وتخافوه وتعبدوه كما أمر؛ لأن الفضل منه والجزاء لكم، وليس بحاجة إليكم فتمنُّوا عليه، بل أنتم مخلوقون ضعفاء بحاجة إلى من يرعاكم ويراقبكم ويحاسبكم، وينصر المظلوم من الظالم، ويمضي سنته في خلقه، قد أحاط بصره وعلمه وسمعه بالسماوات والأرض كلها "فإنه لا تهديد أبلغ من إحاطة العلم، فكأنه قيل: لا تقدموا بين يديه فإن الله محيطٌ بالعلم، فهو يعلم سركم وجهركم"[(٤)] لأن الذي يعلم غيب السماوات والأرض يعلم غيب النفوس، ومكنون الضمائر، وحقائق الشعور ويبصر ما يعمله الناس، ولا تخفى عليه مكنونات الضمائر والصدور.

---

(١) روح المعاني (٢٦/ ١٦٩).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٨٠٢).

(٣) تيسير الكريم الرحمن للسعدي ص٨٠٣.

(٤) نظم الدرر ٧/ ٢٤٢ بتصرف يسير.

مفاتيح الغيب التي لا يعلمها إلا اللّه تعالى:

قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنعام: ٥٩].

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**مفاتح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله: لا يعلم ما في غدٍ إلا الله، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله**»[(١)].

"**قال ابن عباس رضي الله عنه:** (هذه الخمس لا يعلمها إلاّ الله تعالى)، ولا يعلمها ملك مقرب ولا نبي مرسل، ومن ادعى أنه يعلم شيئًا من هذه فقد كفر بالقرآن؛ لأنه خالفه"[(٢)].

"ومعنى حصر هذه المفاتيح في هذه الخمس أنها هي الأمور الغيبية المتعلقة بأحوال الناس في هذا العالم، وأن التعبير عنها بالمفاتيح أنها تكون مجهولة للناس، فإذا وقعت فكأن وقوعها فتح لما كان مغلق. وهذه الغيبيات في عالم البشر، أما في العوالم الأخرى في الحياة الآخرة فالمغيبات عن علم الناس كثيرة وليست لها مفاتيح علم في هذا العلم"[(٣)].

وإن النفس البشرية لتقف أمام هذه الغيوب عاجزة، تدرك حقيقة علمها المحدود، وعجزها الواضح ويتساقط عنها غرور العلم والمعرفة المدَّعاة، وتعرف أمام ستر الغيب المسدل أن الناس لم يؤتوا من العلم إلا قليلًا، وأن وراء الستر الكثير مما لم يعلمه الناس، ولو علموا شيئًا فسيظلون واقفين أمام ذلك الستر لا يدرون ماذا سيكون غدًا؟! بل ماذا سيحصل اللحظة التالية؟!

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ﴾ (٤٦٩٧).

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٤/ ٨٢.

(٣) التحرير والتنوير ٢١/ ١٩٨.

الخَاتِمَة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وأصلي وأسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعه إلى يوم الدين...

وبعد:

يبرز لنا من السورة الجهد العظيم الذي تمثله توجيهات القرآن الكريم والتربية النبوية الحكيمة، لإنشاء وتربية الأمة المسلمة، التي تمثل ذلك العالم الرفيع الكريم النظيف السليم، وقد وجدت حقيقته يومًا على هذه الأرض؛ فليس الأمر فكرةً مثاليةً، ولا حلمًا طائرًا يعيش في الخيال، إنَّ الأمة المثالية التي تمثلت المنهج الرباني لم تنبت فجأة ولم توجد مصادفة، ولم تخلق بين يوم وليلة، ولم تظهر نتيجة نفحة تغير طبائع الأشياء في لحظة أو ومضة! بل نمت نموًا طبيعيًا كما تنمو الشجرة الباسقة العميقة الجذور، وأخذت الزمن اللازم لنموها، كما أخذت الجهد الموصول الثابت المطرد الضروري لهذا النمو، واحتاجت إلى العناية الساهرة، والصبر الطويل والجهد البصير في التعليم والتهذيب والتوجيه، والتقوية والتثبيت والتحذير والترهيب، واحتاجت إلى معاناة التجارب الواقعية والابتلاءات المضنية، مع التوجيه لعبرة هذه التجارب والابتلاءات. وفي هذا كله كانت تتمثل الرعاية الإلهية لهذه الأمة المختارة على علمٍ لحمل هذه الأمانة الكبرى، وتحقيق دين الله ونشره في الأرض، مع الفضائل الكامنة والاستعدادات المكنونة في ذلك الجيل، وفي الظروف والأحوال المهيأة له على السواء، وبهذا كله أشرقت تلك الفترة في تاريخ البشرية؛ ووجدت هذه الحقيقة.

بحمد الله عشنا مع موضوعات سورة الحجرات، ورأينا فيها تلك الوقفات التي تضع لنا المنهج الذي نسير عليه في علاقتنا مع الله تعالى ومع رسوله ﷺ، وكذلك مع الناس جميعًا.

عشنا مع الأدب مع الله ومع كلام الله، والأدب مع القيادة النبوية ومن تبعها بإحسان؛ إذ هي التي تحكمنا ونتلقى منها الأوامر والتوجيهات التي فيها صلاحنا في الدنيا والآخرة.

واستطردنا في الحديث عن الأدب مع كل موجه ومعلم؛ لأنهم هم الذين يحملون ميراث النبوة، اقتداء برسول الله ﷺ وعملًا بالقرآن وتوجيهاته الربانية، وعن حال الذين لا يتأدبون مع الله ولا يتأدبون مع رسوله ﷺ وما أعد الله لهم من الوعيد الشديد.

وكذلك تعرضنا إلى أمر لا تستقيم الحياة ولا تصفو من أكدارها إلا به، ألا وهو موضوع التقوى، وتحدثنا عن محل وجود التقوى وهو القلب؛ فإنه لن يحقق المرء مراد ربه إلا إذا تعاهد قلبه وأخلصه لله، وقد رأينا عناية هذه السورة بالقلوب وتقواها تصريحًا وإيماءً.

وعلمنا من خلال ثنايا السورة أن الإشاعة داء قاتل، ومقالة السوء لا تقف عند حد، والكذب قد فشا سوقه وراجت بضاعته، ووقفنا عند المنهج الشرعي في تلقي تلك الإشاعات والتثبت منها، وتوصلنا إلى نتائج مهمة وقواعد شرعية تقطع دابر الكذب وتلغي أثره، وترد أصحابه على أعقابهم خاسرين.

ووقفنا على معنى الأخوة في الله، وأن الإخاء في الله منهج رباني متى وعاه المسلمون فقد صلحوا وأفلحوا، وفصَّلْنَا في واجبات الأخوة وآدابها وخوارمها، والعلاج الرباني لتلك الخوارم.

وفي نهاية السـورة تعرضنا إلى مبحث الإسـلام والإيمان، واكتفينا من القلادة بما أحاط العنق؛ لأن هذا المبحث مبحث طويل تناوله العلماء بالتحقيق والتدقيق.

فهذه هي السـورة الجليلة، التي تكاد بآياتها الثمانية عشر تستقل برسم معالم عالمٍ كريمٍ نظيفٍ رفيعٍ سـليمٍ، بينما هي تكشـف كبريات الحقائق، وتقرر أصولها في أعماق الضمير.

وفي ختام هذا البحث المتواضع أسـأل الله تعالى أن يجبر تقصيري، وأن يعفو عن خطئي ونسياني.

فما كان في هذا البحث من صواب فمن الله وحده، وما كان فيه من خطأ فمني ومن الشيطان.

وإن تـجـد عـيـبًا فـسـدَّ الخللا   فـجـلَّ مَـن لا عـيـبَ فـيـه وعـلا

سـبحان ربـك رب العزة عما يصفون، وسـلام على المرسـلين، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسـلام على نبي الأولين والآخرين، وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

١- الاستقامة- أحمد بن عبدالحليم بن تيمية الحراني أبو العباس- جامعة الإمام محمد بن سعود - المدينة المنورة- ط١(١٤٠٣هـ)- تحقيق: د. محمد رشاد سالم.

٢- إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان- ابن القيم الجوزية- دار المعرفة- بيروت.

٣- إيجاز البيان في سور القرآن- محمد على الصابوني- مكتبة الغزالي.

٤- أيسر التفاسير- أبو بكر الجزائري- ط١(١٤٠٧هـ).

٥- البحر المحيط- محمد بن يوسف أبى حيان الأندلسي- دار الفكر- بيروت ط٢(١٤٠٣هـ).

٦- البداية والنهاية- الحافظ ابن كثير الدمشقي- دار الكتب العلمية- بيروت- ط١ (١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م).

٧- بدائع التفسير لجامع لتفسير ابن القيم- جمعه: يسري السيد محمد- دار ابن الجوزي- ط١ (١٤١٤هـ).

٨- تاريخ دمشق- على بن الحسن ابن هبة الله الشافعي المعروف بابن عساكر- دار الفكر بيروت- ط(١٤١٥هـ).

٩- التبيان في آداب حملة القرآن- النووي- دار الخضيري- ط٤ (١٤١٩).

١٠- التحرير والتنوير- محمد الطاهر ابن عاشور- الدار التونسية للنشر- ط١ (١٩٨٤م).

١١- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي- محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري- دار الكتب العلمية- بيروت.

١٢- تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم- ابن جماعة الكناني- مع تعليقات المحقق السيد محمد هاشم الندوي- دار المعالي ط ٣(١٤١٩هـ).



١٣- تذكرة السامع والمتكلم في آداب العلم والمتعلم- بدر الدين ابن جماعة- دار الكتب العلمية- بيروت.

١٤- أنوار التنزيل وأسرار التأويل- عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي-دار الفكر-بيروت- مطبوع مع المصحف.

١٥- تفسير القرآن العظيم - إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي - تحقيق سامي بن محمد السلامة - دار طيبة للنشر والتوزيع - ط١ (١٤١٨هـ-١٩٩٧م).

١٦- تفسير القرآن العظيم- ابن أبي حاتم- تحقيق/ أسامة الطيب-مكتبة نزار مصطفي الباز- مكة المكرمة- ط١-١٤١٧.

١٧- التوقيف على مهمات التعاريف- محمد عبد الرؤوف المناوي- دار الفكر المعاصر، دار الفكر - بيروت، دمشق - ط١ (١٤١٠هـ)- تحقيق: د. محمد رضوان الداية.

١٨- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان - عبد الرحمن بن ناصر السعدي - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط١ (١٤١٦هـ- ١٩٩٦م).

١٩- جامع الأصول في أحاديث الرسول- مجد الدين بن الأثير- تحقيق شعيب الأرنؤوط - مكتبة الحلواني، والملاح، ودار البيان- ط١٣٩١هـ - ١٩٧١م).

٢٠- جامع البيان عن تفسير آي القرآن- محمد بن جرير الطبري- تحقيق د/ عبدالله بن عبدالمحسن التركي - مركز البحوث والدراسات الإسلامية - القاهرة -ط١ (١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م).

٢١- جامع الترمذي- محمد بن عيسى الترمذي- بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع- الرياض- (١٤١٩هـ-١٩٨٩م)- اعتناء فريق بيت الأفكار الدولية.

٢٢- جامع العلوم والحكم- عبد الرحمن بن رجب الحنبلي- دار المعرفة- بيروت.

٢٣- جامع بيان العلم وفضله- ابن عبد الرب- دار الفكر- بيروت لبنان.

٢٤- الجامع لأحكام القرآن- محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي- دار الكتاب العربي.

٢٥- حاشية الأصول الثلاثة- عبد الرحمن النجدي- وكالة الطباعة والترجمة- الرياض.

٢٦- الدر المنثور في التفسير بالمأثور- لجلال الدين السيوطي- تحقيق عبد المحسن التركي- مركز هجر للبحوث والدراسات الإسلامية والعربية- القاهرة- ط١(١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م).

٢٧- درء تعارض العقل والنقل - أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس - دار الكنوز الأدبية- الرياض- ط(١٣٩١)- محمد رشاد سالم.

٢٨- دلائل النبوة- أبي بكر أحمد البيهقي - تخريج وتعليق: د/ عبد المعطي قلعجي- دار الكتب العلمية - بيروت - ط١ (١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م).

٢٩- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني- محمود الألوسي البغدادي-دار الفكر-بيروت-١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.

٣٠- روضة العقلاء ونزهة الفضلاء- محمد بن حبان البستي أبو حاتم- دار الكتب العلمية- بيروت - ط (١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م)- تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد.

٣١- زاد المعاد في هدي خير العباد - محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله ابن القيم الجوزية- مؤسسة الرسالة- مكتبة المنار الإسلامية- بيروت- الكويت- ط١٤(١٤٠٧هـ- ١٩٨٦م).

٣٢- سلسلة الأحاديث الصحيحة- محمد ناصر الدين الألباني- المكتب الإسلامي- بيروت- ط٤ (١٤٠٥هـ-١٩٨٥م).

٣٣- سنن ابن ماجة- محمد بن يزيد ابن ماجة القزويني- بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع- الرياض- (١٤١٩هـ-١٩٨٩م)- اعتناء فريق بيت الأفكار الدولية.

٣٤- سنن أبي داود- سليمان بن الأشعث السجستاني- بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع- الرياض- (١٤١٩هـ-١٩٨٩م)- اعتناء فريق بيت الأفكار الدولية.



٣٥- سـنن البيهقي الكبرى- أحمد بن حسـين أبو بكـر البيهقي- تحقيق محمـد عبد القادر عطا- مكتبة دار الباز- مكة المكرمة- ط١٤١٤هـ-١٩٩٤م).

٣٦- سـنن النسـائي- أحمد بن شـعيب النسـائي- بيت الأفـكار الدولية للنشـر والتوزيع- الرياض- (١٤١٩هـ-١٩٨٩م)- اعتناء فريق بيت الأفكار الدولية.

٣٧- سورة الحجرات دراسة تحليلية- د/ ناصر العمر- دار الوطن- الرياض- ط٢ (١٤١٤هـ).

٣٨- سـير أعـلام النبلاء- محمد بن أحمد الذهبي- بإشـراف شـعيب الأرنؤوط-مؤسسـة الرسالة-بيروت- ط٣ (١٤٠٧هـ-١٩٨٧م).

٣٩- السـيرة النبوية- عبدالملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري- تحقيق/ مصطفى السقا- مؤسسة علوم القرآن (دمشق بيروت)- دار القبلتين للثقافة الإسلامية - جدة.

٤٠- شـرح الأربعين النووية- محمد بن صالح العثيمين- دار الثريا للنشـر- الرياض- ط١ (١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م).

٤١- شـرح العقيدة الطحاوية- محمد ناصر الدين الألباني- المكتب الإسـلامي- بيروت- ط٢ (١٤١٤هـ).

٤٢- شعب الإيمان - أحمد بن الحسين البيهقي- دار الكتب العلمية- بيروت- ط١- ١٤١٠هـ.

٤٣- صحيـح ابـن حبان- محمـد ابن حبـان التميمي البسـتي- تحقيق شـعيب الأرنؤوط- مؤسسة الرسالة- بيروت - ط٢ (١٤١٤هـ-١٩٩٣م).

٤٤- صحيح ابن خزيمة- محمد بن إسحاق بن خزيمة النيسابوري- تحقيق محمد مصطفى الأعظمي- المكتب الإسلامي- بيروت- ط (١٣٩٠هـ-١٩٧٠م).

٤٥- صحيـح الأدب المفـرد- محمد ناصر الديـن الألباني- دار الصديق للنشـر والتوزيع- الجبيل- ط٢ (١٤١٤هـ-١٩٩٤م).

٤٦- صحيح البخاري - محمد بن إسماعيل البخاري - بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع - الرياض - (١٤١٩هـ-١٩٨٩م)- اعتناء أبو صهيب الكرمي.

٤٧- صحيح الترغيب والترهيب- محمد ناصر الدين الألباني- المكتب الإسلامي- بيروت - ط٢ (١٤٠٦هـ-١٩٨٦م).

٤٨- صحيح الجامع الصغير وزياداته- محمد ناصر الدين الألباني- تعليق وفهرسة زهير الشاويش- المكتب الإسلامي- بيروت- ط١(١٤٠٨هـ-١٩٨٨م).

٤٩- صحيح سنن ابن ماجة- محمد ناصر الدين الألباني- تعليق وفهرسة زهير الشاويش- المكتب الإسلامي- بيروت- ط١ (١٤٠٨هـ-١٩٨٨م).

٥٠- صحيح سنن أبي داود- محمد ناصر الدين الألباني- تعليق وفهرسة زهير الشاويش- المكتب الإسلامي- بيروت- ط١ (١٤٠٨هـ-١٩٨٨م).

٥١- صحيح سنن الترمذي- محمد ناصر الدين الألباني- تعليق وفهرسة زهير الشاويش- المكتب الإسلامي- بيروت- ط١ (١٤٠٨هـ-١٩٨٨م).

٥٢- صحيح مسلم- مسلم بن الحجاج النيسابوري- بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع- الرياض - (١٤١٩هـ-١٩٨٩م)- اعتناء أبو صهيب الكرمي.

٥٣- صحيح مسلم بشرح النووي- أبو زكريا يحي بن شرف بن مري النووي الشافعي- دار الكتب العلمية- بيروت.

٥٤- الصفدية- أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس- ط٢ (١٤٠٦هـ) تحقيق: د. محمد رشاد سالم.

٥٥- ضعيف سنن أبي داود- محمد ناصر الدين الألباني- تعليق وفهرسة زهير الشاويش- المكتب الإسلامي- بيروت- ط١ (١٤٠٨هـ-١٩٨٨م).



٥٦- ضعيف سنن الترمذي- محمد ناصر الدين الألباني- تعليق وفهرسة زهير الشاويش- المكتب الإسلامي- بيروت- ط١ (١٤٠٨هـ-١٩٨٨م).

٥٧- الضياء الشارق في رد شبهات الماذق المارق- سليمان بن سحمان- دار العيان ط٤ (١٤١٢هـ).

٥٨- عقيدة الفرقة الناجية- محمد بن عبد الوهاب- المكتب الإسلامي- بيروت- ط٣ (١٣٩٧هـ).

٥٩- فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية- طبع بإشراف الرئاسة العامة لشؤون الحرمين.

٦٠- فتح الباري بشرح صحيح البخاري - أحمد بن على بن حجر العسقلاني - ترقيم وتبويب محمد فؤاد عبد الباقي- دار الريان للتراث- القاهرة- ط١ (١٤٠٧هـ-١٩٨٦م).

٦١- فتح القدير الجامع بين فني علم الرواية والدراية من علم التفسير- محمد بن على الشوكاني- دار الوفاء للنشر والتوزيع- المنصورة- ط١ (١٤١٥هـ).

٦٢- فقه التعامل مع الناس - عبد العزيز بن فوزان بن صالح الفوزان- ط١ (١٤٢٤هـ).

٦٣- القاموس المحيط- الفيروزآبادي- مؤسسة الرسالة- بيروت - ط٢ (١٠٧هـ- ١٩٨٧م).

٦٤- الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية- أيوب بن موسى الحسيني الكوفي- مؤسسة الرسالة- بيروت- ط١ (١٤١٢هـ- ١٩٩٢م).

٦٥- لسان العرب- ابن منظور- دار صادر- بيروت.

٦٦- مجلة البيان- مجلة إسلامية- شهرية- جامعة تصدر عن المنتدى الإسلامي- لندن- بريطانيا.

٦٧- مجمع الزوائد- على بن أبي بكر الهيثمي- دار الريان للتراث ودار الكتب العلمية- القاهرة، بيروت.

٦٨- محاسن التأويل- محمد جمال الدين القاسمي- ط: دار الفكر، لبنان، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ.

٦٩- المحرر الوجيز في الكتاب العزيز - عبد الحق بن عطية الأندلسي- مؤسسة دار العلوم- الدوحة - ط١ (١٣٩٨هـ- ١٩٧٧م).

٧٠- مختصر معارج القبول بشـرح سلم الوصول- اختصره هشام بن عبد القادر آل عقدة - دار الصفوة- القاهرة - ط٣ (١٤١٣هـ- ١٩٩٢م).

٧١- مختصر منهاج القاصدين- أحمد بن قدامة المقدسـي- تحقيق/ محمد وهبي سليمان وعلى عبد الحميد أبو الخير- دار طيبة- الرياض ط١(١٤١٥هـ- ١٩٩٤م).

٧٢- مدارج السالكين - ابن القيم الجوزية - دار الكتاب العربي - بيروت - ط١(١٤١٠هـ- ١٩٩٠م).

٧٣- المستدرك على الصحيحين - محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري - تحقيق مصطفى عبد القادر عطا- دار الكتب العلمية - بيروت - ط١(١٤١١هـ- ١٩٩٠م).

٧٤- مسـند أبي يعلى أحمد بن علـي بن المثنى أبو يعلى الموصلـي التميمي- دار المأمون للتراث- دمشق- ط١ (١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م)- تحقيق: حسين سليم أسد.

٧٥- معارج القبول بشرح سلم الوصول- حافظ حكمي- دار الإفتاء- الرياض.

٧٦- المعجم الوسيط - د/ إبراهيم أنيس ورفاقه - نشر: دار الدعوة- ط٢.

٧٧- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة- محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله ابن قيم الجوزية- دار الكتب العلمية - بيروت.

٧٨- المفردات في غريب القرآن- الراغب الأصفهاني - دار الفكر.

٧٩- مـن وحـي القـرآن- جمـع وترتيـب د/ جمعـة أميـن- دار الدعـوة- إسـكندرية- ط١(١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م).

٨٠- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج- أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي- دار إحياء التراث العربي - بيروت - ط٢ (١٣٩٢هـ).



٨١- المهذب من إحياء علوم الدين- صالح احمد الشامي - دار القلم، الدار الشامية - دمشق، بيروت- ط٢ (١٤١٩هـ- ١٩٩٨م).

٨٢- الموافقات في أصول الشريعة- لأبي إسحاق الشاطبي- مكتبة الرياض الحديثة- الرياض.

٨٣- الموسوعة الحديثية- مسند الإمام أحمد- مؤسسة الرسالة- بيروت- ط١(١٤١٨هـ- ١٩٩٧م)- بإشراف المحقق الشيخ شعيب الأرنؤوط.

٨٤- الناسخ والمنسوخ في كتاب الله ﷻ واختلاف العلماء في ذلك- أحمد بن محمد النحاس- تحقيق ودراسة د/ سليمان بن إبراهيم اللاحم- مؤسسة الرسالة- ط١(١٤١٢هـ- ١٩٩١م).

٨٥- نحو منهج شرعي لتلقي الأخبار وروايتها- أحمد عبد الرحمن الصويان- دار السليم للنشر والتوزيع- ط٣ (١٤٢١هـ-٢٠٠٠م).

٨٦- نضرة النعيم في مكارم وأخلاق الرسول الكريم- إعداد مجموعة من المتخصصين- دار الوسيلة- جدة- ط١ (١٤١٨هـ).

٨٧- النهاية في غريب الحديث- ابن الأثير- تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي- المكتبة العلمية - بيروت.

٨٨- نواقض الإيمان الاعتقادية وضوابط التكفير عند السلف - د/ محمد بن عبد الله الوهيبي- دار المسلم - الرياض- ط١ (١٤١٦هـ).

الفهرس